التاسيسات الفكرية للطبقة الوسطى "العراق إنموذجاً"

أ.م.د. حميد فاضل حسن(*)

اهتم الفكر السياسي في القرنين الاخيرين بدراسة الطبقات على نحو غير مسبوق, واصبح موضوع التحليل الطبقي المعني بالطبقات من حيث تعريفها, وتحديد موقعها في السلم الاجتماعي, فضلاً عن نوعية العلاقة بين شرائحها وفئاتها المختلفة من حيث الصراع والتناغم, المادة الرئيسة والموضوع الاكثر اهمية في دراسات الفكر السياسي والاجتماعي.ومن بين الطبقات, احتلت الطبقة الوسطى مكان الصدارة في الكتابات الفكرية السياسية, التي راحت, لا سيما منذ وقت مبكر, تبرز دورها في التطورات الهائلة التي عرفها العالم على مختلف الصعد الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولم تتردد هذه الدراسات في اقرار نتيجة حاولت تعميمها , وهي انه لو لا الطبقة الوسطى وحيويتها, بل وتضحياتها لكان العالم لا يزال يعيش تحت ظلام العصور الوسطى. فالعالم المتقدم اذن يدين الى الطبقة الوسطى بكل ما وصل اليه اليوم من تطور وتقدم في العلوم والفنون والآداب.

بيد ان هذه الرؤية الفكرية المؤكدة على اهمية الطبقة الوسطى, اصطدمت وعلى نحو كبير بإشكالية علمية محددة قوامها ان الطبقة الوسطى تمثل تسلسلاً محدداً في سلم الطبقة الاجتماعية, وهذا يعني انها لا توجد مستقلة منفردة عن الكل وهو ايضاً طبقة, تنتظم وتتسلسل المراتب فيها وفقا لمعايير تختلف من شخص لأخر ومن اتجاه فكري لأخر.

لقد احدث هذا الامر انقساماً بين النظريات الكبرى في الفكر السياسي المعاصر, وتحديداً الماركسية والليبرالية. وتجلى ذلك في تأكيد الماركسية على الطبقة في الوقت الذي راحت فيه الليبرالية تؤكد على الطبقة الوسطى, وقد عكس ذلك الانقسام حجم الاهتمام الكبير الذي ابدته كل نظرية حول هذا الموضوع.

(*) كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد.

ان هذه الدراسة تحاول البحث في الاسس الفكرية للطبقة الوسطى, ومن المنطقي ان تكون الطبقة هي اولى هذه الاسس واكثرها اهمية. وستحاول هذه الدراسة ايضاً ان تقدم نموذجاً تطبيقياً ويتمثل ذلك بالطبقة الوسطى في الفكر السياسي العراقي التي يشهد محاولات حثيثة لإعادة احيائها من جديد بعد سحقها وتهشيمها في العقود الماضي.

اولاً, الطبقة في الفكر السياسي الغربي المعاصر, احتل مفهوم الطبقة مكاناً بارزاً في الفكر السياسي والاجتماعي, وظهرت في دراسته نظريات ومدارس فكرية حاولت الوقوف على الابعاد المفاهيمية والفكرية له. وسنحاول تسليط الضوء عليها وعلى النحو الاتي:

1- تعريف الطبقة, كان مفهوم الطبقة(CLASS) مجال اهتمام العلوم الاجتماعية المختلفة, التي حاول كل منها ان يضع مفهوماً محدداً لها يتناسب والاهداف المعرفية التي يسعى للوصول اليها, والادوات المنهجية التي يمتلكها. ففي علم السياسة لا نجد مفهوماً محدداً متفقا عليه, بسبب اختلاف النظريات والافكار السياسية –على نحو ما سنرى- في طريقة التعامل وزاوية النظر للمفهوم, ولكن بوسعنا القول ان مفهوم الطبقة يعد احد اهم المفاهيم السياسية التي تعكس طبيعة البناء الاجتماعي السياسي في مجتمع ما.[1]

اما بالمعنى الاجتماعي, فتعرف الطبقة على انها مجموعة معينة من الافراد الذين يتقاربون من حيث المواقع (STATUS) والادوار(ROLES) الاجتماعية, ويشاركون في مصالح واهداف, يعونها بنسب متفاوتة. ان تقسيم المناشط الاجتماعية كان وراء ظهور الاصناف المهنية والحرفية. ثم وراء تكون الجماعات المتمايزة(الطبقات) داخل المجتمع الواحد.[2]اما في اطار علم النفس, فأن احد علماء النفس الأمريكيين البارزين (ت.هـ.بير) في كتابه الاختلافات الاجتماعية الانكليزية, يشير الى (ان طبقة الفرد هي جزء من ذاته, وشعور من جانبه بالانتماء الى شيء ما, وارتباط بشيء اكبر من نفسه)[3]. بمعنى ان الطبقة شعور اولاً(انها جماعة من الاشخاص يشعرون بان هناك صفات وعادات معينة تجمعهم, ولكي يكون الفرد عضواً كاملاً في طبقة اجتماعية يجب ان يشعر انه كذلك, ويجب ان يشعر به الاخرون ايضاً)[4].

وفي المجال الاقتصادي تعرف الطبقة على انها(عبارة عن تكوين اقتصادي في اساسه بالرغم من انه يشير في النهاية الى الموقع الاجتماعي للأفراد والعائلات المكونين له في مظاهره المختلفة.

ان فكرة الطبقة تتطلب او تفترض مسبقاًوجود فكرة اللامساواة, وبالتالي فأنها تتضمن وجود طبقة اخرى على الاقل, او, وفي النظرة الثنائية, وجود مجرد طبقة اخرى رئيسة الى جانب فئات اخرى اصغر, على اعتبار ان اللامساواة تعتمد اساساً على الملكية)[5].

ان التعاريف اعلاه تتضمن عوامل ومعايير ذاتية وموضوعية تشكل بمجموعها اسساً للطبقة اعترفت بها النظريات الكبرى سواء كان ذلك في الفكر الماركسي او الليبرالي, ويمكننا ان نضعها او نصنفها الى نوعين من المعايير وهما:

النوع الاول: المعايير التقليدية, وتتمثل بالمعايير الاقتصادية التي تؤكد على الدور الحاسم لملكية وسائل الانتاج في التحليل الطبقي, وقد كانت هذه المعايير جزء من ادوات التحليل للنظريات الكبرى وفي مقدمتها الماركسية والليبرالية وتتمثل ب([6]):

-الثروة, كثيراً ما نتحدث عن الطبقات الغنية والطبقات المتوسطة والطبقات الفقيرة, ونتحدث عن طبقة الملاك او طبقة المعدومين وغيرها من الطبقات, ان تحديد كل ذلك مرتبط بالثروة.

-المهنة او الوظيفة, هناك من يعتقد ان المهنة او الوظيفة هي افضل معيار لتحديد الطبقة, وذلك عندما يكون الغرض من ذلك هو الوصول الى تقدير تقريبي لعدد الافراد في كل طبقة اجتماعية.

النوع الثاني: المعايير الحديثة, وتتمثل هذه المعايير بالثقافة والتربية واسلوب الحياة, وتحظى هذه المعايير باهتمام متزايد, وينبغي ان نذكر بان اعتماد هذه المعايير للتصنيف الطبقي ليس جديداً ولكنه لم يكن يحظى بالاهتمام المرجو نظراً لطغيان التركيز على المعايير الاقتصادية , الثروة والمهنة, على الدراسات الطبقية للفترة الماضية. لقد اصبحت المعايير المتعلقة بأسلوب الحياة والتربية والثقافة عاملاً مهماً في التحليل الطبقي , ويمكن عد كتابات (بيار بورديو) واطروحته حول الهابيتوس[7] الاكثر اهمية في هذا الاتجاه, ان (بورديو) يضيف بعداً جديداً للتحليل الطبقي من خلال التركيز على عملية الاستهلاك وما يرتبط بها من ثقافة. ويذهب (بورديو) الى ان دراسة ثقافة الاستهلاك تكشف لنا جوانب غامضة في بنية التدرج الطبقي, وتظهر التمايزات الطبقية, اذ ان كل طبقة تمتلك راس مال نوعياً, الهابيتوس الخاص بها. فالطبقة البرجوازية تمتلك ميول واستعدادات اكيده لرسم الحدود بينها وبين باقي الطبقات, عن طريق استهلاك وتذوق السلع والخدمات عالية الجودة والقيمة, وهذه الميول تكتسب بالتنشئة

والتعلم, وتتم خبرتها من خلال اساليب الحياة التي يمارسها الافراد في تفاعلاتهم البينية, وفي مفردات اللغة التي يستخدمونها, وفي ممارسة انواع مخصوصة من الرياضات والهوايات, وفي قضاء اوقات الفراغ في الاستمتاع في الفن والادب والجمال. بمعنى انهم يتذوقون الحياة على نحوٍ يعكس ويؤكد اصولهم الطبقية[8], وعلى الطرف النقيض يسود الطبقة العاملة نظام للتذوق يسميه (بورديو) تذوق الحاجة (العوز), في حين يتطلع افراد البورجوازية الصغيرة الى تقليد انماط مشابهه للتذوق البرجوازي, وهذا ما يجعل التذوق نظاماً للتصنيف الطبقي[9].

وهذا ما اظهرته دراسات عديدة اكدت ان انساق القيم ونماذج السلوكيات ومبادئ التربية تختلف, بوضوح, بين طبقة واخرى, يمكن ملاحظة هذه الاختلافات الثقافية حتى في الممارسات اليومية الاكثر اعتيادية. من ذلك,مثلاً, ما اظهره (كلود وكريستيان غرينيون) من ان الطبقات الاجتماعية المتباينة تناسبها اساليب تغذية مختلفة, التزود من المتجر الكبير الواحد الذي يمكن يعطي الانطباع بتجانس انماط الاستهلاك يخفي اختيارات متباينة. ان العادات المتصلة بتقاليد مختلف الاوساط الاجتماعية هي شديدة الاستقرار في مجال التغذية. وليس مرد ذلك ,اساسياً, الى فوارق الطاقة الشرائية, بل ان الممارسات الغذائية لها ارتباط عميق بأذواق تختلف قليلاً, اذ تحيل على صور لا واعية والى تدريبات والى ذكريات طفولة. يبلغ مدى الانقسامات الطبقية حد التمظهر في اختيار الخضر واللحوم والغلال واطباق التحلية النهائية, فمن اللحوم ما هو(برجوازي) شأن لحم الضأن او العجل,ومنها ماهو(شعبي) شأن لحم الخنزير ولحم الارنب والمقانق الطازجة(في فرنسا) وللخضر الطازجة هرميتها هي ايضا المتراوحة بين رفيعة المقام (الهندباء, الهليون,...) والاكثر فلاحية(الكراث المسمى لدى العامة هليون الفقراء) والاكثر عمالية (البطاطس). ان نمط طهي الاطعمة دال كذلك على الاذواق الطبقية، الاكل, اذاً, طريقة لتعيين الانتماء الى طبقة اجتماعية[10]. الهابيتوس هو, اذاً, ما يسمح للأفراد بالتوجه في فضائهم الاجتماعي, وتبني ممارسات تتفق وانتماءهم الاجتماعي, واذا كان الهابيتوس يجعل بإمكان الفرد ان يبني استراتيجيات استباقية فان ذلك لا يمنع هذه الاستراتيجيات من ان تكون منقادة بتر سيمات لا واعية, (ترسيمات ادراك وفكر وفعل) تتولد عن فعل التربية والتنشئة الاجتماعية التي يخضع الفرد وعن (تجارب ابتدائية) متصلة به ولها (ثقل مفرط)مقارنة بالتجارب اللاحقة[11]

لعل معرفة اسس الطبقة بالشكل اعلاه, سيكون مفيداً جداً للكشف عن الفروقات التي تحتاج الى تمييز بين مفهوم الطبقة والمفاهيم القريبة ذات الصلة ومنها:

-الطبقة والفئة الاجتماعية, يتمثل الاختلاف في كون الفئات الاجتماعية تقوم على خاصية اساسية واحدة او مجموعة من الخصائص المتماسكة, فهي تقوم على الحرفة وحدها حين نتكلم عن فئة البنائين او فئة المدرسين او فئة الجند....الخ, او على وسيلة الحصول على الدخل, فنقول فئة الملاك, او فئة اللصوص, او فئة الاجراء...الخ. وكل طبقة اجتماعية تشمل فئات اجتماعية مختلفة, فطبقة الفلاحين مثلاً تضم الملاك الذين يستغلون ارضهم بأنفسهم الى جانب المستأجرين او العمال الزراعيين, وطبقة العمال تضم عمال المصانع او المناجم او السكك الحديدية. وتنقسم الفئة الاجتماعية بدورها الى فئات اكثر تخصصاً, ففئة الاطباءمثلا تنقسم الى اطباء رمد(عيون), او باطنيين او اطباء اسنان....[12]

-الطبقة والشريحة الاجتماعية, تعرف الشريحة الاجتماعية بانها مجموعة من الناس تتكون من نفس الفئة من الافراد والجماعات, ومن نفس المستوى في عملية التدرج الطبقي كالعمال والمستخدمين.....الخ. والطبقات تتميز عن الشرائح الاجتماعية بكونها اوسع, فضلاً على انها ليست قابلة للدراسة الاحصائية, في حين ان الشرائح تقبل هذه الدراسة[13].

-الطبقة والطائفة, تتميز الطبقة عن الطائفة, فأنها على عكس الطائفة ليست مقفلة, واذا كان الانسان منذ ولادته ينتمي بالضرورة الى طبقة معينة فهو يستطيع ان يرتفع منها الى طبقة اعلى, اما اذا كان ينتمي الى طائفة معينة فانه يظل ينتمي اليها طول حياته[14].

-الطبقة والمهنة, ان الطبقة سابقة على المهنة. فالإنسان يولد في طبقة معينة ثم يختار مهنة فيما بعد. كما ان المهنة تؤثر غالبا في اختيار المهنة, وقد يرث الابن مهنة ابيه, كما ان الطبقة الواحدة تضم عادة اشخاصاً من مهن مختلفة, ولذا يمكن ان نقول ان الطبقة اوسع من المهنة[15].

ان الذي نخلص اليه ان مفهوم الطبقة يتميز بالصرامة العلمية, ولهذا احيط باهتمام علمي كبير وواضح من النظريات الفكرية الكبرى في التاريخ, وتحديداً من النظرية الماركسية والنظرية الليبرالية.

2- مفهوم الطبقة في الفكر السياسي الغربي المعاصر,كانت الطبقة ميداناً لأكثر الافكار اهمية في الفكر السياسي, وقد يكون ما تيسر للطبقة من مفكرين كبار بحثوا فيها باهتمام كبير مثل (كارل ماركس) و(ماكس فيبر) العامل المهم في ان تحظى الطبقة باهتمام خاص فاق غيرها من المفاهيم الاخرى. لقد اصبحت الطبقة بفضل هؤلاء المفكرين جزءاً اصيل من بناء النظريات الكبرى وتحديداً الماركسية والليبرالية.

أ- مفهوم الطبقة في الفكر السياسي الماركسي, على الرغم من محاولة (ماركس) التقليل من اهمية الاضافة المعرفية الكبيرة التي قدمها في دراسة الطبقات الاجتماعية, بقوله في رسالة ارسلها عام 1852 الى صديقه الشيوعي الالماني (فايديماير), والذي كان منفياً في الولايات المتحدة الامريكية (في ما يتعلق بي, لا يعود الي فضل اكتشاف وجود طبقات المجتمع الحديث, ولا فضل اكتشاف صراعتها في ما بينها, لقد وصف مؤرخون برجوازيون قبلي بزمن طويل النمو التاريخي لصراع الطبقات)[16]، الا ان هذا القول لا يخفي حقيقة ان (ماركس) قد صنع شيئاً جديداً وجذرياً في دراسة الطبقة الاجتماعية.

ان الطبقات برأي (ماركس) موجودة وتعتبر حقيقة موضوعية, مع انها بطبيعتها غير واضحة وغير ملموسة. فليس هناك احد رأى طبقة او شعر بها مع ان مظاهر العلاقات بين الطبقات يمكن رؤيتها والاحساس بها[17]. والاحساس متولد برأي (ماركس) من ان الانسان لا يواجه ذاته في ذاته, معزولاً.فالإنسان كائن اجتماعي, والتعبير عن حياته حتى ولو لم يظهر في الصورة المباشرة كتعبير عن الحياة,منجز مع الاخرين وفي الوقت نفسه, هو تعبير عن الحياة الاجتماعية وتأكيد لها. ان الاشخاص يعقدون فيما بينهم, بمناسبة العمل, علاقات انتاج وهي تعني ان الاشخاص لا يؤثرون في الانتاج, في الطبيعة وحدها, بل يؤثر ايضاً بعضهم في بعضهم الاخر. فهم لا ينتجون الا بالتعاون بطريقة محددة وتبادل فعالياتهم فيما بينهم, وهم يعقدون فيما بينهم, من اجل الانتاج, علاقات وصلات محددة ولا يقوم تأثيرهم في الانتاج الا في حدود هذه العلاقات وهذه الصلات الاجتماعية[18]. ان علاقات الانتاج هي التي تحدد في رأي (ماركس) وجود الطبقات الاجتماعية, فالطبقة عنده (تجمع من الاشخاص يؤدون الوظيفة ذاتها في عملية تنظيم الانتاج, فالأحرار او العبيد او السيد او الخادم, او بجملة اخرى المستغِل والمستغَل, هي كلها مسميات لطبقات اجتماعية في عصور مختلفة)[19] ويعرف(لينين) الطبقة

وفقاًلقول (ماركس) هذا (يطلق اسم طبقات اجتماعية على تجمعات بشرية كبيرة تتميز بمكانتها في نظام تاريخي محدد للإنتاج الاجتماعي, وبعلاقاتها بوسائل الانتاج, وبدورها في طريقتها في تلقي نصيبها من الثروة الاجتماعية كما في حجم هذا النصيب. ان الطبقات الاجتماعية هي تجمعات بشرية يستطيع احدها تملك عمل الاخر نتيجة للمكانة التي يشغلها في نظام اقتصادي معين)[20].وهكذا تبدو الطبقة لدى اصحاب الاتجاه الماركسي, هي نقطة البدء في مستوى التحليل السوسيولوجي في علم الاجتماع الماركسي. اذان الافراد داخل اطار الطبقة انما تتحقق لدى كل واحد منهم مقولات الفكر التي تترسب في اعماق الوجدان الطبقي[21]وعندما تتعمق وجدانياً لدى الافراد تتشكل الطبقة داخل المجتمع.والمجتمع في المفهوم الماركسي في جميع العصور التي مرت بها البشرية منذ نشأته ينقسم حسب ملكية وسائل الانتاج الى طبقتين, احداهما تملك وسائل الانتاج, والاخرى لا تملك الا قدرتها على العمل. وسبب هذا الانقسام يعود الى عدم تكافئ توزيع المصادر الاقتصادية مما ينتج طبقة مالكة لها ويجعلها مستغلة- حاكمة- متسلطة, في حين الطبقة الاخرى تكون فاقدة للمصادر الاقتصادية والسلطوية داخل النظام العام[22]. وهذا الانقسام يكون مبرراً كافياً لاندلاع الصراع بين الطبقتين. ان الصراع هو الطابع السائد على حركة المجتمع الانساني منذ نشأته, هذا ماعلنه البيان الشيوعي عام 1848 (ان تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ النضال بين الطبقات, فالحر والعبد, والنبيل والعامي, والسيد الاقطاعي والقن, والمعلم والصانع, اي بالاختصار اي المضطهِدون والمضطهَدون كانوا في تعارض دائم, وكانت بينهم حرب مستمرة تارة ظاهرة وتارة مستترة, حرب كانت تنتهي دائماً اما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره, واما بانهيار الطبقتين المتناضلتين معاً)[23]

يؤدي الصراع الى ان تستولي الطبقة الاقوى على جهاز القمع والاكراه الذي هو الدولة لإخضاعالطبقات الاخرى, وتَسير شؤون المجتمع لخدمة مصالحها الطبقية, في هذا يقول (لينين) (ان الدولة لم تكن موجودة على الدوام, فقد مر زمن لم يكن للدولة وجود, فالدولة تظهر حين يظهر انقسام المجتمع في طبقات, عندما يظهر المستثمِرون والمستثمَرون, وبمقدار ما ينشئ انقسام المجتمع الى طبقات, ويتوطد بمقدار ما ينشئ المجتمع الطبقي وتنشئ الدولة وتتوطد)[24]

في عصر الطبقة المسيطرة, عصر البرجوازية فان(المجتمع اخذ في الانقسام اكثر فاكثر, الى معسكرين فسيحين متعارضين, الى طبقتين كبيرتين, العداء بينهما مباشر–هما البرجوازية والبروليتارية)[25] وان المجتمع البرجوازي الحديث, الذي نشأ على انقاض المجتمع الاقطاعي, فانه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات, بل اقام طبقات جديدة بدلاً من القديمة, واوجد ظروفاً جديدة للاضطهاد واشكالا جديدة للنضال)[26] ان الطبقة البرجوازية المسيطرة تعيش(في حالة حرب مستمرة, في بادى الامر, ضد الارستقراطية, ثم ضد تلك الجماعات من البرجوازية نفسها التي تتناقض مصالحها مع رقي الصناعة, وبصورة دائمة ضد برجوازية الاقطار الاجنبية جميعاً. وترى البرجوازية نفسها مضطرة, في كل ميادين النضال هذه, الى الالتجاء للبروليتارية وطلب معونتها, فتجرها بذلك الى مضمار الحركة السياسية, وهكذا تقدم البرجوازية بيديها الى البروليتاريين عناصر ثقافتها, اي انها تسلمهم السلاح الذي سيحاربونها به)[27] وهي بذلك تنتج (قبل كل شيء حفاري قبرها, فسقوطها وانتصار البروليتارية كلاهما امر محتوم لا مناص منه)[28] وما ان تعلن البروليتارية عن انتصارها الحتمي حتى تعمل على ازالة الفوارق الطبقية(وما ان تختفي هذه الفوارق وتزول خلال سير التطور, ويصبح كل الانتاج متمركزاً في ايدي جمعية واسعة, تشمل الامة باسرها, حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية. اذ ان السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هي السلطة المنظمة لطبقة من اجل اضطهاد طبقة اخرى , فاذا كانت البروليتارية, في نضالها ضد البرجوازية, تبني نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة, تهدم بالعنف والشدة علاقات الانتاج القديمة, فأنها بهدمها علاقات الانتاج القديمة تهدم في الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات وتهدم الطبقات بصورة عامة, وبذلك تهدم ايضاً سيادتها , ذاتها من حيث هي طبقة)[29].

وعلى الرغم من هيمنة مفهوم (ماركس) للطبقة والصراع الطبقي على الاطار الفكريللنظرية الماركسية, الا ان التطور التكنلوجي الذي عرفه العالم بعد رحيل (ماركس), واظهار البرجوازية قدرة عالية على معالجة الازمات الناشئة في بنيتها الرأسمالية, والتكَيف مع الظروف المستجدة في العمل, حفّز مفكرين ماركسيين اخرين على تطوير مفهوم (ماركس) هذا للطبقة . ويعد المفكر الايطالي (انطونيو غرامشي) ابرز من مثل اتجاه التطوير في النظرية الماركسية وخصوصاً في مفهومها للطبقة والصراع الطبقي. ان المعطى الاول الذي يفترضه التحليل

العلمي للمجتمع وتاريخه لدى (غرامشي) ليس هو المعطى الاقتصادي, كما هو عند (ماركس), بل هو الانسان بوصفه كائناً ثقافياً, وفاعلاً اجتماعياً, يكتسب وجوده الانساني فعلاً من اجتماعه بالأخرين في اطار علاقات تفاعل وتواصل وتبادل وتفاهم وصراع وتعاون, اي في اطار علاقات منتجة للثقافة والحضارة[30]. ولهذا يحذر (غرامشي) في هذا الاتجاه من ميل النزعة الاقتصادية في الماركسية الى ارجاع المصالح الطبقية للطبقات الاجتماعية, ومن ثم اهدافها وطابع سلوكها في ميدان الصراع الطبقي الى محض مصالح اقتصادية آنية ومباشرة لشريحة معينة من شرائحها[31]. ان العامل الاقتصادي في رأي (غرامشي) لم يعد محور الصراع الطبقي, وانما العامل الايديولوجي, وكان ذلك نتيجة اعتماد الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة على الهيمنة الفكرية , كبديل عن استخدام العنف, وتلاشي التفاوت الظاهري بين القاعدة والتركيبة الفوقية, وتناسق العلاقات بين مختلف الاطراف بالشكل الذي يجعل العملية الثورية عملية كلية. بمعنى انها لم تعد ترتكز على العامل الاقتصادي والاستيلاء على السلطة, كعامل حاسم للانتقال الى التشكيلة الاشتراكية. فضلاً عن في هذه المجتمعات اصبحت الطبقة البروليتارية تضم اصنافاً عديدة متفاوتة اجتماعياً وفكرياً. كما انها تتعرض الى تطورات تكنلوجية, ويتسع بها العلم في حقل الانتاج, فضلاً عن تغلغل انماط متفاوتة من البيروقراطية, كما تتسع في هذا المجتمع ثقافة جماهيرية تجعل المستوى الوسطي يغلب فيه. لقد ادرك (غرامشي) هذه العوائق جاعلاً منها العامل الحاسم للتحول الاجتماعي. ومن هنا يبرز الاختلاف بين (غرامشي) و(ماركس) لمسالة النضال الثوري, فالصراع الطبقي تحول هنا الى صراع فكري ينصب في التعرض لأسس المجتمع البرجوازي الفكرية والادبية والاخلاقية[32].

ان ما تقدم يثبت ان الطبقة وصراعاتها مقولة رئيسة للنظرية الماركسية, مثلت عنصراً مهماً من عناصر تحليل التاريخ ورصد حركته وصولاً الى بلوغ غاياته, فالطبقة في المفهوم الماركسي النقطة التي انطلقت منها حركة التاريخ من خلال الفعل الانساني, وعندها ايضاً ستتوقف ببلوغ الحتمية النهائية, وهي الوصول الى المجتمع الخالي من الطبقات, مجتمع الحرية والمساواة.

ب– مفهوم الطبقة في الفكر السياسي الليبرالي المعاصر, مثلت اطروحات النظرية الماركسية في التحليل الطبقي دافعاً فكرياً مهماً للفلاسفة والكتاب الليبراليين لصياغة اطروحات فكرية

تعالج موضوع الطبقات, وما يرتبط بها من مفاهيم وقضايا بمنظور مختلف عن ذلك الذي طرحه (ماركس) وانصاره. ويمكننا ان نشير هنا الى نموذجين فكريين ليبراليين في هذا الاتجاه:

1-دراسات (ماكس فيبر), انطلق (فيبر) في دراسة مفهوم الطبقة من الدراسة الاقتصادية ل(ماركس) التي ترى ان الطبقة لا يمكن فهمها الا من خلال التعارض بين راس المال والعمل, فوجود هذا التعارض يؤدي الى وجودها, ولكن استمرارية وشدة احتدامه سيؤدي بلا شك الى الغائها, وهذا هو القدر المحتوم والتطور الموضوعي لمسار التاريخ(33). وعلى العكس من ذلك درس (فيبر) مفهوم الطبقة على مدار التاريخ وليس فقط الى العصر الحديث, فالرأسمالية بالنسبة اليه موجودة منذ القدم, فالفترة التي كانت تعرف اشكال غير منظمة من التصرفات والسلوكيات الاجتماعية كالنهب والسرقة والحروب...الخ, هي شكل من اشكال النشاط غير العقلاني تحولت مع التطور الاقتصادي للأفراد الى تصرفات عقلانية تحكمها قوانين. الطبقة لدى (فيبر) مفهوم لا اجتماعي في جوهره, فالطبقة ناتجة من وضع اقتصادي وتنشأ حتى تصبح فرص مجموعة من الناس متشابهة في سوق العمل : فرص الحياة والقدرة على تملك الاصول, وشراء السلع والخدمات, التعرض للظروف نفسها في سوق العمل. حين يحدث ذلك لمجموعة من الناس فانهم يؤلفون معا طبقة من الناس, يتحدد وضعها بالنسبة الى الطبقات الاخرى وفقا لحالة السوق(34). ومع انه يرى ان الطبقة تتكون بفعل المتغيرات الاقتصادية الا ان وجودها يؤدي الى وجود انماط جديدة من الفعل الاجتماعي والسياسي. اعتمد (فيبر) على الملكية الاقتصادية وعلى طريقة توزيع سلطة من الملكية المادية, فقسم الطبقات الى ثلاثة وهي(35):

_ الطبقة ذات الملكية, وهي عند فيبر تعتمد على امتلاك رصيد معين (منجم, ارض, مواش, عبيد) دون ان تتولى تشغيل هذا الرصيد فهي تؤجر هذه الارصدة, مستدرة الريوع. اي انها مالك لوسائل الانتاج .

_ الطبقة المنتجة, هي منظمة للعمل او مساهمة فيه (الانتاج), من دون ان تكون, بالضرورة, مالكة لأدوات الانتاج المستخدمة, اي انها منظمة انتاج مادي (سلعي) مستدرة الربح الرأسمالي الاصلي.

_ الطبقة الاجتماعية حسب تعبير فيبر, فهي خلافاًللأولى والثانية, لا تملك وسائل مادية لتأجيرها, ولا تستأجر هذه الوسائل لإنتاج سلع مادية, انما تبيع الخدمات اعتماداً على التعليم (المعرفة المنظمة) اي انها خدمية, بياعة معلومات.

اعتبر (فيبر) ان وضع الفرد في طبقة اجتماعية عالية او رفيعة يسمح له ان يكون له جاه ومكانة عالية, وقد يستطيع من خلال وضعه المالي الجيد ان تكون له حظوة سياسية, لكنه لاحظ ان الثروة ليست المحدد الوحيد للتموضع الطبقي داخل المجتمع, ولذلك اضاف لها ابعاداً ثقافية واجتماعية كالتعليم والمعرفة والخبرة والشرف, وهوما يضفي على مفهوم الطبقة بعداً اوسع,ما يسمح بوجود مجموعات داخل الطبقة تضع الفئات ذات المكانة او الوجاهة الاقتصادية او الاجتماعية في مكانة اسمى, وتتدرج الى ان تصل الى ادنى الهرم الاجتماعي[36].

2- دراسات النخبة , بعد ان كانت كلمة النخبة تستخدم في القرن السابع عشر لوصف سلع ذات تفوق معين, وامتد استعمالها فيما بعد للإشارة الى فئات اجتماعية متفوقة كالوحدات العسكرية الخاصة والطبقات العليا من النبلاء, ظهرت بقوة في نظرية النخب التي تبلورت في مطلع القرن العشرين كرد فعل نظري في مواجهة خطر هيمنة المفاهيم الماركسية في علمي الاجتماع والسياسة, وعلى ذلك فهي منذ ظهورها وضعت نفسها في مواجهة واضحة مع الماركسية[37].

ويمكن من خلال تحليل مقولات رواد هذه النظرية التمييز بين اربعة اتجاهات اساسية, تناولت موضوع النخبة بالدراسة والتحليل وهي[38]:

-الاتجاه الاول: الاتجاه التنظيمي, الذي يمثله (جيتانو موسكا) و (روبارت ميشالز), يرون ان النخبة تمتلك القوة من قوة تنظيمها وقلتها.

-الاتجاه الثاني: الاتجاه السيكولوجي, الذي يمثله (فلفريدو باريتو), الذي ارجع مصادر القوة عند النخبة الى الخصائص السيكولوجية.

-الاتجاه الثالث: الاتجاه الاقتصادي الذي يمثله (كارل مانهايم), يمثل محاولة للمزاوجة بين الرؤية الماركسية والنخبوية, والذي يرجع مصدر القوة الى حصول الاقلية على الموارد الاقتصادية من خلال القوة الادارية.

-الاتجاه الرابع: الاتجاه النظامي يمثله (سي.رايت ميلز), ويرى ان قوة النخبة في الاوضاع النظامية الرئيسة التي يمتلكها اعضاء المجتمع.

تمكنت النظرية الماركسية من التأثير في مفكري النخبة الاوائل وكانت باعث حقيقي لهم وهم يصوغون نظرياتهم النخبوية التي ترى ان عقل النظام السياسي لا يكون الا انطلاقاً من تحليل الواقع الطبقي للمجتمع, والنظر الى الحاكمين كتجسيد لهيمنة طبقة على بقية الطبقات, وبالتالي النظر الى النظام السياسي كانعكاس للصراع الطبقي.

ويمكن ملاحظة ذلك في نظرية التباين التي ادت دوراً كبيراً في علم اجتماع (باريتو), الذي رأى ان المجتمع ليس متجانساً بحكم اختلاف الناس عن بعظهم جسماً وعقلاً وخلقاً, واذا ما شئنا دراسة الظواهر الواقعية فعلينا اخذ ظاهرة الاختلاف وعدم التجانس هذه بنظر الاعتبار, لان التباين الجذري في منتظمات القيم الخاصة بالأفراد لا يسمح باي حال من الاحوال باعتبار المجتمع كما لو كان شخصا واحداً. كما كان (باريتو) يستخدم تعبير التباين الاجتماعي للإشارة الى حقيقة ان كل المجتمعات المعروفة تتضمن فصلاً او تعارضاً بين جمهور الافراد المحكومين والعدد الصغير من الافراد الحاكمين المهيمنين الذين يدعون بالنخبة. واذا ما كان التمايز بين الطبقات يبدو اساسياً في علم الاجتماع الماركسي فان التمايز بين الجماهير والنخبة يبدو حاسماً في علم اجتماع (باريتو)[39]. ويطلق (موسكا) على هذه القلة اسم الطبقة السياسية بدل النخبة في دلالة واضحة على تأثره بالماركسية, ان اهم مبدأ عند (موسكا) هو القلة التي تتمتع بها الطبقة والتي تمنحها نوعاً من التنظيم الذي لا تتميز به اغلبية افراد المجتمع, كلما كبرت الجماعة قل تماسكها وكلما قل حجمها ازدادتتمسكا[40].

وعلى الرغم من هذا التقارب بين الاتجاهين الا ان ذلك لم يمنع اصحاب الاتجاه النخبوي من تقديم انتقادات الى الماركسية كنظرية, وبالذات للطبقة كإطار للتعامل مع قضايا المجموعة المسيطرة على الجهاز السياسي للدولة. ويمكن اجمال هذه الانتقادات في الاتي[41]:

أ_ قضية الطبقة السائدة سياسياً, وهو ما يعبر عنه احياناً بالطبقة السياسية في مفهوم نظريات النخب السياسية,وهو تعبير خاص, وينصب الاعتراض الاساسي على النظرية الماركسية في هذا الخصوص على انها تفترض وحدة الطبقة السائدة اقتصاديا والطبقة السائدة سياسياً, في حين ان الامر ليس كذلك دائماً, كما لاحظتنظريات النخبة. ومن هنا كانت

المحاولات المختلفة لصياغة مفهوم للطبقة لا يمت للمفهوم الماركسي بصلة. ويضاف الى هذا الاعتراض الاساسي اعتراض تيار ما يسمى بالتحولات في النظام الرأسمالي, الذي يرى انه لا يمكننا في الوقت الحاضر ان نقول ان هناك طبقة سائدة اقتصادية. لهذا يقتضي اللجوء الى تفسيرات اخرى لأساس السلطة السياسية.

ب_ قضية جهاز الدولة والبيروقراطية, فهذه النظرية ترى انه وفقاً للمفهوم الماركسي تتركز كافة الوظائف السياسية من الناحية الواقعية في يد الطبقة السائدة اقتصادياً وسياسياً, ويمارسها عملياً اعضاء هذه الطبقة ذاتها, غير انه اذا كانت الطبقة الاقطاعية تجمع بين وظائف الحكم السياسية والادارة العامة والوظائف العسكرية ....الخ, فليس هذا هو واقع الحال بالنسبة للبرجوازية, ومن هنا كان اللجوء لتفسير هذا التباين الى مفهوم ينظر الى وجود جهاز الدولة ذاته باعتباره اساس السلطة السياسية, واذا يخلط هذا المفهوم بين سلطة الدولة وجهاز الدولة فانه يضفي بذلك على بيروقراطية الدولة سلطة خاصة, ومن جهة ثانية, ترى تلك النظريات ان الدولة في مفهوم النظريةالماركسية تعمل كمجرد اساس لسيطرة الطبقة السائدة,وهو مفهوم يحرم النظريةالماركسية من امكانية بحث الاستقلالية النسيبة للبيروقراطية ازاء الطبقة السائدة, ومن هنا كان لجوء تلك النظريات الى اضفاء سلطة سياسية مستقلة على البيروقراطية, سلطة موازية للسيطرة الطبقية السياسية او الاقتصادية فهذا هو في رأي تلك النظريات السبيل الوحيد لتفسير نشاط البيروقراطية المتميز.

ج_ فيما يتعلق بالصراع الطبقي, تورد نظرية النخب ملاحظتين حول رؤية النظريةالماركسية: الاولى, الخطأ في الايمان بان الصراع الطبقي يتحدد بالأساس بالعامل الاقتصادي او بالصراعات التي تنجم عن ملكية ادوات الانتاج, بينما ان السيطرة على الدولة او القوة العسكرية يمكن ايضاً ان يكون اساس الصراع والتعارض بين النخبة والجماهير.

الثانية, ان النظرية الماركسية اخطأت في الايمان بان الصراع الطبقي المعاصر يختلف جذرياً عن الصراع الطبقي الذي يمكن ان نلاحظه عبر العصور, وان انتصار البروليتارية سيضع نهاية له, فالصراع الطبقي المعاصر هو صراع بين البروليتارية والبرجوازية سينتج عنه انتصار من يتحدثون باسم البروليتارية وليس البروليتارية, اي اقلية متميزة لا تختلف عن النخب التي سبقت او التي ستعقب.

نخلص مما تقدم ان مفهوم الطبقة في الادبيات الليبرالية, يبدو متأثراً, وايضاً مهتماً الى حد بعيد بما صاغته النظرية الماركسية في هذا الاتجاه, فبدت افكاره تبدو كما لو كانت رد فعل على ما كتبته النظرية الماركسية في التحليل الطبقي, وانشغل الفكر الليبرالي في كثير من الاحيان على الرد على هذه الافكار الماركسية ومهاجمتها, الامر الذي افقده الكثير من الابداع والتميز بالقياس الى ما قدمته الماركسي .

ثانيا, الطبقة الوسطى في الفكر السياسيالمعاصر, شكلت الدراسات حول الطبقة الوسطى, محوراً مهماً من محاور الفكر السياسي, وهي كمفهوم الطبقة لم تقتصر دراستها على نظرية فكرية دون اخرى, ولكن بالتأكيد اختلفت النظريات في حجم التعاطي مع مفهوم الطبقة الوسطى, فالنظرية الماركسية بحثت فيه ولكن بدرجة اقل من النظرية الليبرالية التي اعتبرته الاساس في التطور السياسي والاقتصادي.

1- تعريف الطبقة الوسطى, على الرغم من سعة انتشار مصطلح الطبقة الوسطى في الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية, الا ان مسألة تعريفه تعاني من تحديات معرفية كبيرة, فهو في نظر البعض مصطلح هلامي وفضفاض ويفتقد الى الدقة العلمية[42]. وفي تقديرنا ان ذلك يعود الى مستويين من الاسباب:

المستوى الاول, الاسباب العامة, وترى ان تعريف الطبقة الوسطى- حالها حال الطبقات الاخرى – من اصعب الامر, ليس الان فحسب, بل منذ القدم, والسبب ان المجتمع ظاهرة حركية لا تلبث على حال, وسلم الطبقات دائب الحركة, كان الامير يؤسر فيتحول الى عبد. بل ان (افلاطون) نفسه, وهو سليل اسرة نبيلة جداً قصد دكتاتوراً ليقنعه بجمهوريته فاستعبده وباعه. فجمع اصدقاؤه الفدية وحرروه. وهكذا فان جدلية الحياة تصنع الاوساط في كل شيء, فمعاينة الطبقة الوسطى من اشق الامور[43].

المستوى الثاني, الاسباب الخاصة بالطبقة الوسطى ذاتها, فتعترض مهمة التعريف صعوبات تتعلق ببناء الطبقة الوسطى, وتتمثل في[44]:

-الافراد المكونين للطبقة الوسطى, حيث تضم هذه الطبقة افراداً عديدين من طبقات مختلفة فهي تضم صغار التجار وصغار الملاك وصغار الضباط والموظفين والطلبة....

-الاعمال والحرف او المهن التي تتضمنها الطبقة الوسطى, فقد شاعت التسمية الجمعية للطبقة الوسطى من مجموع حرف واعمال شكلت في بعضها اعمالاً متنافرة لا تتلاءم مع صيغة المجموعة التي وضعت في اطار الطبقة الوسطى.

ان هذه العقبات دفعت بالبعض الى انكار وجود طبقة واحدة, وانما الحديث عن طبقات عديدة.(فهناك طبقة متوسطة تقليدية وطبقة متوسطة حديثة. وهناك طبقة متوسطة تجارية وطبقة متوسطة مثقفة, وطبقة متوسطة مهنية, وطبقة متوسطة ادارية وطبقة متوسطة للأقليات والاجانب, وهناك طبقة متوسطة حضرية وطبقة متوسطة ريفية)[45]

وبعيدا عن الدخول في تفصيلات هذه الآراء, وابداء موقف ازاءها رفضاً او قبولاً,نشير الى الوصف العام للطبقة الوسطى, وهو انها في الاساس تستمد اسمها من دورها الوسيط بين الطبقات الاجتماعية, فتكون وسطى في المجتمع بين الطبقات الكبرى, اذهي وسطى بين البرجوازية والطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي, وهي وسطى بين الاغنياء والفقراء في المجتمعات الريفية والمدينية, وهي وسطى بين اغنياء الريف و فقرائه, وهي وسطى بين المجتمع والدولة, وهي في المحصلة الاجمالية التي تحتل مكان الوسط في عالم متناقض الادوار والمصالح في اي مكان وفي اي مستوى كان[46]. لقد قدمت للطبقة الوسطى تعريفات عديدة, هي في حقيقتها ليست بعيدة عن بعضها في الاطار العام, ولا بعيدة عن بعضها في تحليل الطبقة الوسطى وتشريحها. ولهذا سنعمد هنا الى تبني التعريف الذي قدمته منظمة الامم المتحدة(اسكوا) في تقرير لها حول الطبقة الوسطى في الوطن العربي في عام 2014,وينطلق هذا التقرير من افتراض ان اي بحث موثوق في مسألة مثيرة للجدل كالطبقة الوسطى لا بد له ان يعتمد نهجاً متعدد التخصصات اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً, لان ترابط هذه الابعاد يتيح فهم اعمق للديناميات الكامنة وراء نمو الطبقة الوسطى واضمحلالها, ويكمن التحدي في صياغة بحث تتكامل فيه هذه المقاربات التحليلية بدلاً من ان تتنافس. وعلى اساس هذا الافتراض تقدم الوثيقة تعريفين للطبقة الوسطى, هما[47]:

التعريف الاول, ينطلق من المنظور الاقتصادي, فيحدد الطبقة الوسطى بالأفراد الذين يتراوح مستوى دخلهم او انفاقهم بين عتبتين نقديتين, بغض النظر عن خصائصهم الاجتماعية. ومن هذا المنظور يصنف الافراد حسب درجة الحرية التي يتمتعون بها للاستهلاك. وعلى نحو اكثر

تحديداً, تحدد الطبقة الوسطى على انها تشمل الافراد الذين يتخطى مجموع انفاقهم خطاً للفقر يكون محدداً بشكل مناسب, ولا يتجاوز انفاقهم على السلع والخدمات غير الاساسية قيمة خط الفقر المحدد. ويستخدم هذا التقرير مصطلح الطبقة الوسطى للأفراد الذين ينطبق عليهم هذا التعريف الاقتصادي, واستطراداً, يعتبر الميسورون في المجتمع اولئك القادرين على تخصيص حصة اكبر من دخلهم للأنفاق على عناصر غير اساسية (وفقا لسلة السلع والخدمات التي تستهلكها الطبقات الادنى الاكثر حاجة).

التعريف الثاني, يحدد الطبقة الوسطى من المنظور الاجتماعي,بالاستناد الى مجموعة من الخصائص الاجتماعية, بغض النظر عن مستوى الرفاه المادي او الدخل او الانفاق. وعلى نحو اكثر تحديداً تضم الطبقة الوسطى العاملين في القطاع العام او الخاص في فئة الوظائف المكتبية (التي يطلق عليها ايضاً وظائف ذوي الياقات البيضاء) ويملكون مؤهلات تعليمية او ثانوية اعلى.

والطبقة الوسطى بهذا المعنى, هي في الحقيقة خليط واسع متعدد وغير متجانس من الافراد والجماعات, ولهذا فانه عند معالجة مشكلات هذه الطبقة او تحليل مواقفها واتجاهاتها ازاء قضية ما, يميل الباحثون الى تقسيم هذه الطبقة الى ثلاث شرائح, وهي[48]:

– الشريحة العليا من الطبقة الوسطى, ويمثل افرادها النسبة الاقل في كتلة هذه الطبقة, فتضم: العلماء والباحثين واساتذة الجامعات والمعاهد العليا والمديرين واصحاب المهن المتميزة كالأطباء والمهندسين والقضاة والمحامين وكبار ضباط القوات المسلحة والبوليس والفنين العاملين في قطاع المعلومات. واعضاء هذه الشريحة يحصلون عادة على دخول مرتفعة وذات طابع متغير, ويتميز نمطهم الاستهلاكي بالتنوع والغنى وباشتماله على قدر كبير من رموز الاستهلاك الترفي بسبب الفائض الكبير الذي تنطوي عليه دخولهم. وغالباًما يوجد بين اعضاء هذه الشريحة من يملكون او يشتركون في ملكية وسائل الانتاج الزراعي او الصناعي, وتوجد لديهم ثروات مادية ومالية متنوعة, من هنا فان دخول هذه الشريحة لا تنبع من المرتبات فحسب التي يتقاضونها من اعمالهم المهنية, وانما قد تشمل على ايجارات وفوائد وارباح. وغالبا ما تفرز هذه الشريحة الكتاب والفنانين وقادة الرأي والزعماء السياسيين, كما ان هذه الشريحة اكثر قرباً للسلطة ولصناع القرار الاقتصادي والسياسي, ويحتلون مواقع مهمة في اجهزة الدولة.

– الشريحة المتوسطة من الطبقة الوسطى, تضم من حيث الحجم عدداً اكبر من الافراد بالمقارنة مع الشريحة العليا, ويعمل افرادها بمرتبات ثابتة او شبه ثابتة, ويشغلون الوظائف الادارية والفنية والاشرافية في الوزارات والاجهزة والمصالح الحكومية وادارات الحكم, مثال ذلك المدرسين والموظفين في شركات القطاع العام, والمشتغلين في البنوك وشركات التامين والمؤسسات التجارية, ومن يعملون بالخدمة الشخصية لحساب انفسهم. وافراد هذه الشريحة يمكن تصنيفهم على انهم من ذوي الدخل المتوسط, ويغلب على مستوى تأهيلهم انهم من خريجي الجامعات او المعاهد العليا او المتوسطة, ويعيش هؤلاء في الظروف العادية في حالة (مستورة).

– الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى, تضم بين صفوفها عدداً كبيراً من صغار الموظفين الذين يعملون في الوظائف الكتابية والبيروقراطية, كما تضم عدداً من المشتغلين لحساب انفسهم في قطاعات الخدمات والمشروعات الصغيرة,كالموظفين في مكاتب الصحة والمستشفيات والدوائر الحكومية, ومن يعملون في مجال البيع والتوزيع واقسام الحسابات والارشيف في القطاع العام, ومحصلي الضرائب والرسوم ...الخ. وافراد هذه الشريحة على قسط محدود من التأهيل المهني والتعليمي, وهم يمثلون اغلبية الطبقة الوسطى وقاعدتها العريضة, ويعتبرون من ذوي الدخول الثابتة والمحدودة,ولهذا يتسم نمط توزيع دخلهم بغلبة نسبة ما يذهب منه الى الاستهلاك الضروري, حيث ان معدلات ادخارهم ضئيلة جدا, او تكاد تكون معدومة, وكثير من افراد هذه الشريحة اقرب الى حال الطبقة العامة .

ان الطبقة الوسطى بشرائحها الثلاث, طبقة فضفاضة واسعة تستقبل يومياً مواليداً جدد من خارجها. وفي الوقت عينه تفرز في المراحل التاريخية المختلفة بورجوازيين متوسطين, يصبح بعضهم بورجوازيين تقليديين. ان في الطبقة الوسطى حركة مستمرة بين صعود وهبوط. البرجوازي المتوسط قد يصبح تقليدياً ولكنه قد يصبح برجوازياً صغيراً فقيراً, لان حركة الصراع داخل الطبقة الوسطى وحركة الصراع العام تؤدي الى افلاس الكثيرين منهم وافقراهم. ولهذا لا يجوز الكلام على الطبقة الوسطى باعتبار ان كل واحد فيها يأخذ وضعاً ثابتاً, فليس كل واحد فيها او من ابنائها يحتل موضعاً ثابتاً, وبالتالي نستطيع ان نحكم عليه اليوم, كما نحكم عليه بعد ستة اشهر, وبعد ست سنوات. انها في حركة مستمرة تنمو وتتسع قاعدتها وتختلط

معالم شرائحها. من كان في الشريحة المتوسطة منها يصبح فقيراً, وينضم الى حركة الفقراء منها. ومن كان فقيراً يمكن ان يصبح برجوازياً كبيراً من الشريحة المتوسطة, فتصبح له مواقف متذبذبة، ومن كان منها متوسطاً قد يصبح برجوازياً غنياً تقليدياً ويصبح مع القوة الرجعية[49].وعلى اساس ما تقدم يمكننا القول, ان مفهوم الطبقة الوسطى لا يتمتع بذات الصرامة العلمية التي امتلكها مفهوم الطبقة, ولهذا اختلفت الآراء ولم تتفق بين الباحثين بشأنها, حتى على الحد الادنى مما هو مطلوب وهو اعتبارها طبقة واحدة ام هي طبقات متعددة, ومن حيث كونها مستقلة بذاتها ام انها جزء من طبقات اخرى.

2- مفهوم الطبقة الوسطى في الفكر السياسي الغربي المعاصر, لم تنل الطبقة الوسطى نصيبها من الاهتمام في الفكر السياسي كما نالته المفاهيم الاخرى, وتحديداً الطبقة, وتجلى ضعف الاهتمام هذا بعدم وجود نظريات وافكار اتخذت من الطبقة الوسطى موضوعاً لها, كما لم يبرز في دراسة الطبقة الوسطى مفكرين كبار اتخذوا منها مجالاً للبحث والتحليل, ففي ما عدا بعض الاسهامات البسيطة (لماكس فيبر) لم تكن هناك اي جهود اخرى تذكر. وبالرغم من المعطيات الواقعية اعلاه سنحاول دراسة الطبقة الوسطى في اطار الفكرين الماركسي والليبرالي, مع ملاحظة ان دراستها في الفكر الماركسي كانت في مرتبة ثانوية بالقياس الى دراسة الطبقة, اما في اطار الفكر الليبرالي فأن دراسة الطبقة الوسطى كان في اطار علاقتها بالبرجوازية التي استخدمت في البداية وبشكل خاطئ لوصف الطبقة الوسطى في المجتمع الرأسمالي. فالطبقة الوسطى تبدو ثمرة من ثمرات البرجوازية.

أ- الطبقة الوسطى في الفكر الماركسي, تؤمن النظرية الماركسية ان الصراع وان كان اساساً بين الطبقتين الرئيستين البروليتارية والبرجوازية، الا ان هذا لا يمنع من قيام طبقات اخرى الى جانبهما[50]. وعلى الرغم من انتقاد بعض المفكرين ومنهم (بوتومور) ل(ماركس) على اساس(ان الطبقة الوسطى لم تحظ باهتمام محترم من قبل فكر ماركس الصراعي, بينما بالغ من اهمية الصراع البرجوازي-البروليتاري)[51]. الا ان دراسات كثيرةل(ماركس)تناولتالفئاتالوسطىالصغيرة, التي يطلق عليها بالألمانية(Kleiner Mittle Klasse) الى جانب العمال. وللأسف, فان الترجمات العربية لهذا المفهوم الاوضح والاكثر دقة, اعتمدت النص الفرنسي وهو البرجوازية الصغيرة(Petite Bourgeoisie) دون

النحت الالماني الذي يحدد الموقع بدقة: صغار الطبقة الوسطى[52]. لقد ورد هذا بشكل واضح في البيان الشيوعي, وفيه يحدد(ماركس) و(انجلز) دور الطبقات المتوسطة بانه (اما صغار الصناعين واصحاب الإيرادات والحرفيون, اي الدرجات السفلى من الطبقة المتوسطة, فيتدهورون الى صفوف البروليتارية, وذلك لان رساميلهم الضعيفة لا تسمح لهم باستعمال اساليب الصناعة الكبرى, فيندحرون ويهلكون في مزاحمتهم لكبار الرأسمالين, وذلك لان مهارتهم الفنية تفقد قيمتها واهميتها تجاه اساليب الانتاج الجديدة, وعلى هذه الصورة تتجند البروليتارية من كل طبقات السكان)[53], ومعنى هذا ان الطبقات المتوسطة ليست ثورية في ذاتها, بل انها, وهي المتعلقة بنظام قديم للأشياء, رجعية في اغلب الاحوال وتسعى ادارة عجلة التاريخ الى الوراء. الا انها تستطيع ان تكون ثورية اذا وعت اندماجها الهائل في البروليتارية[54].

لم يشأ احد من المفكرين الماركسيين ان يضيف شيئاً على ما قاله (ماركس) في الطبقة الوسطى, حتى ظهر (غرامشي) ليقدم شيئا جديداً لمفهوم الطبقة الوسطى, وان كان بشكل غير مباشر, ف(غرامشي) لا يتحدث عن الطبقة الوسطى ذاتها وانما عن المجتمع المدني الذي تنمو في احشائه التكوينات الاولية والاساسية للطبقة الوسطى. فهو يرى مثلاً ان المجتمع المدني انما هو فضاء للتنافس الايديولوجي, بعدما ظل لفترة تاريخية طويلة, فضاء للتنافس الاقتصادي. وقد صاغ الى جانب المجتمع المدني, مفهومه الخاص للمجتمع السياسي, بما هو فضاء للسيطرة السياسية بواسطة القوة والتهديد. لقد استطاع (غرامشي), ان يبلور لنا بصورة غير مباشرة مفهوم المجتمع المدني الذي يستولد الطبقة الوسطى, في ضوء وعيه بخطورة مؤسسات الدولة الايديولوجية المانعة لتشكل هذه الطبقة, وذلك حين تضيف الى اليات القمع: الجيش والبوليس والمحاكم طرق اخرى من الاقناع , مثل الاعلام والتعليم والاعلان الموجه. وقد درس (غرامشي) فعاليتها في الدول المتقدمة, فوجد انها تلعب دوراً اساسياً في احباط معركة المجتمع المتمردة من جهة,وابتكار وسائل حديثة تغذي البدائل الزائفة واشكال الاستلاب المختلفة, بما يسمح من استمرار الدولة الطاغية على شعب مسلوب ومسحوق.حدد (غرامشي) مفهومه في ضوء حراك مجموع المنظمات والهيئات المستقلة التي يجب ان تعمل مقابل المجتمع السياسي في البحث عن كيفية الانتقال الى الديمقراطية لتجاوز

الهيمنة للطبقة الحاكمة, وتوليد الطبقة الوسطى الضامنة لسيادة شيوع الديمقراطية في المجتمع المدني.ومشاركة المثقف وفاعليته في هذا المجتمع. وقد اكد (غرامشي) على دور المثقف والمثقفين كعنصر اساسي للوعي, سواء كانوا يمثلون الفكر التقليدي للمثقف المحافظ ام المجموعات المنتجة الحديثة التي يفرزها المجتمع الصناعي, ام الرؤية الثورية في المجتمع الطبقي. وقد بحث من خلال ذلك في مسألة خلق الانسان الجديد وتوليد الطبقة الوسطى, لمتابعة مهمة تحرير القوة المنتجة للشعب في حركة رفض مستمرة ومتجددة لأشكال القمع والطغيان وشروط وفاعليات استيلاد السلطات السلطوية في المجتمع المدني[55].

مما تقدم يتبين لنا ان الفكر الماركسي وان تباينت بعض الآراء فيه, تعامل مع مفهوم الطبقة الوسطى من خلال موقعها في الصراع الطبقي, وهو يرى ضرورة كسب تأييد اعضاء هذه الطبقة ذات المهارة والعدد الكبير, للطبقة البروليتارية في صراعها الازلي مع الطبقة البرجوازية.

ب–الطبقة الوسطى في الفكر السياسي الليبرالي المعاصر, على الرغم من ان تسمية (الطبقة الوسطى) حديثة نسبياً, اذ تعود الى الربع الاخير من القرن الثامن عشر وتحديداً الى العام 1775, وقد صاغها الكاتب الايرلندي (جيمس برادشو) في مؤلفه الموسوم: مشروع التصدي لتهريب الاصواف الايرلندية الى فرنسا, اذ عرج الكاتب متناولاً تعبير الطبقة الوسطى بكونها تتوسط موقعاً بين طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين في اوربا[56]. الا ان تاريخ الطبقة الوسطى ابعد من ذلك كثيراً, اذ يعود الى عصور ما قبل الميلاد, وتحديداً الى زمن الاغريق. فمنذ الاغريق تركت لنا الطبقة الوسطى فكراً غنياً. اذ نجد جذوراً لدور ومفهوم الطبقة الوسطى في هذا الفكر, فعندما اراد (صولون) (640–558 ق.م) اتمام التشريعات القانونية والاقتصادية التي توقف عن تكملتها (دراكون)(661 ق.م) استعان بالطبقة الوسطى لمحاربة النبلاء والقضاء على نفوذهم[57]. وفي خضم هذا الصراع مع النبلاء ظهرت روائع الفكر السياسي الاغريقي المتعلقة بالطبقة الوسطى, وتحديداً عند (ارسطو)(384–322 ق.م), فاذا كان افلاطون قد جعل في الاعتدال سعادة الفرد ونظام الدولة واستقرار السلطان, فان (ارسطو) عندما نقلها الى ادبه, حاول ان يثبت ان الفضيلة هي على العموم حد وسط بين افراطين متضادين. وتبعاً لهذه النظرية توضع في السياسة قوة الدولة في الطبقة الوسطى للمواطنين الذين ثروتهم كذلك بعيدة عن الثروة الضخمة وعن الفقر المدقع. هؤلاء المواطنون

هم خير الكل لانهم اعقلهم. لا يصيرهم الفقر الى الانتقاص ولا تدفعهم سكرة الثروة الى محاولات الطمع الاعمى الذي يجعلهم في صف المنتفضين. انهم يكفلون للمدينة توازناً قوياً هادئاً يحقق طمأنينتها وسعادتها[58]. ويترتب على ذلك برأي (ارسطو) نتيجة مهمة وهي, ان احسن الدول نظاماً هي التي تكون الطبقات الوسطى فيها اكبر عدداً واعظم قوة من الاغنياء والفقراء. وفي جميع الحالات التي قل فيها عدد افراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب, تغلبت عليها الطبقة التي تفوقها في العدد, سواء اكانت طبقة الاغنياء ام طبقة الفقراء, وتولت بنفسها تصريف الشؤون العامة, واذا ما سيطر الاغنياء على الفقراء, او الفقراء على الاغنياء, لم تستطع هذه الطبقة او تلك ان تقيم دولة حرة[59].

يعد عصر النهضة الاوربي الحديث, بداية التشكيل الحقيقي للطبقة الوسطى. فقد بدأ تكوين هذه الطبقة مع الثورة التجارية, التي ظهرت بوادرها في هذا العصر واسهمت في تغيير النظام الاجتماعي الذي كان قائماً على وجود طبقتين اساسيتين هما: الطبقة الارستقراطية وطبقة العوام[60]. ان هذا العصر سيشهد تمتع العلاقات الرأسمالية بنوع من النفوذ في المجتمع بتمتع الاقتصاد التجاري المير كنتالي بالصدارة, وقد ادى هذا التحول في المراكز الاقتصادية الى تحول في المراكز الاجتماعية, اذ فقدت طبقة النبلاء مركزها الراجح الذي كانت تتمتع به فيالعصور الوسطى لصالح الطبقة البرجوازية. وكان ذلك يعني ان الاوضاع في اوروبا اخذت تتغير على نحو سريع, فقد تهدم النظام الاقطاعي الذي كان مدعوماً من النظام الملكي, وتحرر الفلاحون من رق الارض ومنحوا حق الملكية, وكان هذا تطوراً اقتصادياً مهماً. واصبح الناس يشعرون بان الارض لم تعد المصدر الوحيد للثروة, وانتعشت التجارة والصناعة, وظهرت الطبقة الوسطى التي اشتغلت بالأعمال التجارية بين اوربا والعالم الجديد المكتشف حديثاً, وازدياد العلاقات الاوربية بالشرق الغني من ناحية اخرى[61]. الامر الذي ادى الى صعود الطبقة الوسطى الى قمة السُلم الاجتماعي. وبدأ اعضاء الطبقة الوسطى فرض واقعهم على طابع الحياة الاوروبية(الصيرورة الاخلاقية, اعتماد فلسفة القوة, ملامح مجتمع السوق القائم على المنافسة لا التعاون)[62], لقد كان ذلك يعني ولادة مجتمع السوق الذي سيشكل صورة النظام الرأسمالي, الذي كان قد بدأ بالفعل في ظل صعود الطبقة الوسطى وتنامي سيطرتها لتصبح لها السيادة بالمعنى الاجتماعي—السياسي. هذه التطورات ارتبطت بقيام الثورة الصناعية, التي ادى

اندلاعها في انجلترا, الى تغير او تطور في العلاقات السوسيو-اقتصادية, استفادت منه البرجوازية لتمارس ادواراً فكرية وسياسية[63], ففكرياً برز فلاسفة الانوار او التنوير, ومنهم: (كوندرسيه1743-1794), (ديدرو1713-1784), (كانت1724-1804), (هيوم1711-1776), (روسو1712-1778), (فولتير1694-1778),الذين سيقودون معركة شرسة لتثبيت القيم الجديدة التي يدعون لها ومنها: تقديس العقل والعقلانية, حرية التفكير والتعبير, نقد الدين, قيمة السبب والعلم, الفردية, المساواة ....الخ[64]. وقد مثلت هذه الافكار مرتكزات اساسية للفكر السياسي الليبرالي الذي ستعتمده الديمقراطيات الغربية فيما بعد, فضلاً عن تعبيرها عن التحول الاقتصادي الكبير, الذي يعتمد(الملكية الخاصة) التي تحركها دوافع (المصلحة الخاصة) التي لا يمكن لها ان تزدهر وتنتعش بدون هذه القيم وتحديداً (الحرية) و(الفردية), فالرأسمالية كنظام اقتصادي ليبرالي, يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثروة. اي تملك الافراد لوسائل الانتاج لمصلحة هؤلاء الملاك الافراد. فبدون الملكية الفردية والسوق الحر والانتاج من اجل الربح لا تقوم الرأسمالية. وقد كان نتيجة هذا الجهد العظيم لفلاسفة الانوار ايقاظ الوعي واشعار الناس بالقوة الجديدة الصاعدة وهي البرجوازية, التي يقدمها الباحثون على انها الانموذج العالمي للطبقة الوسطى, وبدفع الناس للعمل بهذا الوعي الجديد, وكانت النتيجة, الثورة الفرنسية في عام 1789. التي يعدها الباحثون الانموذج الامثل لكل ثورات الطبقة الوسطى, لقد انتشرت شعارات هذه الثورة المتمثلة في: الحرية والاخاء والمساواة, كل ارجاء العالم, واصبحت الاساس الفكري لكل التطورات السياسية التي سيشهدها العالم في اوربا وخارجها. ان هذه الثورة تعد بحق اعظم انجاز سياسي وفكري للطبقة الوسطى[65]. وستنعكس اثارها الفكرية المستلهمة من روح فلاسفة الانوار على التقدم العلمي والتكنلوجي الذي سيعرفه العالم في القرن التاسع عشر. واعتبر كثيرون في مجال اقتصاديات التنمية الناشئة ان الطبقة الوسطى كانت القوة المحركة للثورة الصناعية والتنمية الاقتصادية في اوربا في القرن التاسع عشر[66].وبالدخول الى القرن العشرين بدأت الطبقة الوسطى تحصد ثمار مسيرة طويلة من اثبات الذات اقتصادياً وسياسياً, فقد شهد هذا القرن وتحديداً في نصفه الثاني نمواً لامعاً انتعشت فيه الطبقة الوسطى, وكانت اهم سمات تلك المرحلة, هي تلك المعدلات المرتفعة للنمو الاقتصادي, والمعدلات المنخفضة

للتضخم , والمعدلات المتدنية للبطالة , والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة بسب زيادة حجم الدخول واستقرار احوال التوظيف , واتساع شبكة الضمان الاجتماعي وشمولها لعد كبير من الفئات الاجتماعية[67]. وعلى الرغم من التراجعات التي اصابت بعض هذه النجاحات بفعل الازمات التي عرفها العالم الليبرالي في العقدين الاخيرين من القرن العشرين, الا ان ذلك لم يكن الا حالة مؤقتة, فقد تنامت الطبقة الوسطى عالميا في القرن الحادي والعشرين وبشكل متسارع, في ضل ظاهرة تطور اقتصادات البلدان ذات الاسواق الناشئة, التي امسى عددها اليوم يناهز 54 دولة, وهي تحصد حوالي 45% من الناتج الاجمالي العالمي, ويتوقع ان تزداد مساهمتها الى 70% من العقد القادم من الزمن, وهي مازالت تستهلك نصف صادرات النفط العالمي, وتهيمن على نصف الصادرات الدولية,وتحظى ديمغرافياً بنحو 80 % من سكان العالم, وتحتفظ بنحو 75% من الاحتياطات الرسمية للعمة الاجنبية, ويتزايد سكانها بواقع ستة ملايين نسمة شهرياً مقابل 300 الف نسمة في العالم الصناعي الاول. وكمثال على ذلك الصين, فقدنمت الطبقة الوسطى فيها من 15% في العام 1990 الى حوالي 62% في السنوات القليلة الماضية, في وقت مازالت الطبقة الوسطى الامريكية لا تشكل سوى 45% من سكان الولايات المتحدة الامريكية. ويعود تطور الطبقة الوسطى في الصين الى دور السوق في نهضة النمو الاقتصادي, ونشوء المدن, وتحول الفلاحين الذين كانوا يعيشون عند مستوى الكفاف الى عمال مصانع بإنتاجية عالية ودخل اعلى, وتوفير مدخرات, ودورهم في تعظيم صادرات الصين الى العالم وخلق المزايا النسبية والقدرة التنافسية للتجارة الصينية[68].

وهكذا نجحت الطبقة الوسطى في ان تكون الطبقة الرئيسة في المجتمع الانساني, بعد نضال وصراع مرير مع الطبقات الاخرى وتحديداً العليا, وما كان ذلك ليتحقق لو لا ان تيسرت للطبقة الوسطى مجموعة كبيرة من الفلاسفة المتنورين, الذين مثلت افكارهم النور الذي استضاءت به الطبقة الوسطى واهتدت من خلاله الى الوسائل والسبل المثلى لان تحتل الطبقة الوسطى مكانها الطبيعي المتميز في سُلم طبقات المجتمع.

ثالثا: التأسيسات الفكرية للطبقة الوسطى في العراق, كان تأسيس الدولة العراقية الحديثة في مطلع القرن العشرين ايذاناً بأطلاق عملية صنع الطبقة الوسطى, وقد ساعد على ذلك

المكانة المهمة التي بدأت تأخذها فئات الطبقة الوسطى في عملية تشكيل الافكار والقيم في المجتمعات الاوربية الصناعية المتطورة, وبالطبع, فان وجود بريطانيا- صاحبة الثورة الصناعية التي بفعل انجازاتها ولدت الطبقة الوسطى- كدولة احتلال ثم انتداب على العراق, كان هو الاخر عاملاً مضافاً عجل من جهود بناء طبقة وسطى. وبعيداً عن قراءة وتعقب مسيرة الطبقة الوسطى منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى اليوم, وهي مسيرة تخللتها لحظات متباينة, بين ولادة وازدهار, لاسيما بعد عقد الخمسينيات من القرن الماضي بفعل تدفق اموال النفط واتساع نطاق التعليم والمدارس وعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية, وبين لحظات احتضار ان لم يكن موت وذبول بعد العقد الثامن من القرن الماضي والى اليوم, فقد انسحقت الطبقة الوسطى وتبددت انجازاتها التي حققتها على مدار نصف قرن, بفعل الحروب والصراعات الداخلية والخارجية التي كان على الطبقة الوسطى ان تدفع فاتورة حسابها, من دورها ومكانتها التي تراجعت لصالح طبقات اخرى, وكان هذا التراجع سبباً حقيقياً في تراجع احوال البلد في كل المجالات, لكون الطبقة الوسطى القوة الدافعة لكل الانجازات السياسية والفكرية والاقتصادية الرائعة التي عرفها العالم المتقدم في تاريخه الحديث.

1-نشأة الطبقة الوسطى في العراق وتطورها, ترافق ظهور الطبقة الوسطى في العراق مع ظهور دولته الحديثة في عام 1921, ومنذ ظهور نواتها الاولى وحتى اليوم, لم تكف هذه الطبقة من تجديد نفسها ممهدة لظهور طبقات اجتماعية تتناسب وطبيعة المجتمع العراقي المتعدد الاعراف والديانات والقوميات واللغات ... الى الخ, فتبدو من خلال تاريخها انها جدل المجتمع وحاضنته, فمنها ظهرت الشرائح السياسية والعسكرية والتجارية لاحقاً, ليسهم بعضها في قيادة المجتمع العراقي نحو الحروب والتدمير, ويسهم بعضها الاخر في البناء والتعمير, وكما نمت داخل هذه الطبقة العريضة قوة تحديث نمت كذلك الفئات غير القادرة على الاستمرار والديمومة. وما حركتها صعوداً وهبوطاً, حركتها بين الحياة والموت الا عبارة عن نتاج اجتماعي وثقافي وفكري يشخص بداية حداثة المجتمع العراقي[69]. لم تكن حركة الطبقة الوسطى وجهودها نحو تكريس وجودها في الواقع السياسي والاجتماعي العراقي, تجري على وتيرة واحدة, وانما امتازت بعدم الثبات والاستقرار, فقد تراوحت صعوداً وهبوطاً متأثرة بالظروف والوقائع السياسية. فتأثرت في مرحلتها الاولى وهي مرحلة الولادة والتأسيس

بالسياسة البريطانية باعتبارها دولة الاحتلال ثم الانتداب. لقد بدأت هذه السياسة بإيجاد طبقة اجتماعية كسند للاحتلال ثم الانتداب, فلم تجد خيراً من الاقطاع والكومبرادور[70] التجاري الكبير لتأدية هذا الدور[71]. ففيما يتعلق بالإقطاع, لم يكن البريطانيون قد عملوا على تغير مجرى حياة الاقطاع الذي خلفه الاتراك في العراق, فتماشوا مع الوضع السائد مع استثناءات قليلة لا تخرج عن القاعدة المتمثلة بتثبيت الاقطاع في العراق, فقد ناشد الكولونيل(هاول) في سنة 1919 الحكام السياسيين اثناء عملية المسح التي قامت بها سلطات الاحتلال للأراضي في العراق, ناشدهم ان يتذكروا بان الغرض من الاستقصاء لا ينطوي على خلق حقوق جديدة لبعض الناس, وانما ينطوي على تعيين الحقوق الموجودة وتحديدها [72] اما فئة الكومبرادور فقد تصدرت فئات الطبقة العليا(البرجوازية) من جهة علاقتها بالسلطات البريطانية, التي دعمتها وجعلت منها سنداً لوجودها في العراق, وقد ظهر افراد تلك الفئة كوكلاء للشركات الاجنبية, وبخاصة في مدينة البصرة حينما ظهرت الشركة العالمية لتصدير التمور الى خارج العراق. ومن ذلك الحين ارتبطت مصالح تلك الفئة من البرجوازية مصيرياً مع راس المال الاجنبي[73]. وفي ظل هيمنة الاقطاع والكومبرادور لم يكن هناك توجهاً سياسياً, لا من قبل البريطانيين ولا من قبل الملك فيصل الاول, في انشاء طبقة وسطى, بيد ان الواقع هو الذي فرض وجود هذه الطبقة. ويمكن ان نشير الى ثلاثة عوامل اساسية, فرضت ظهور الطبقة الوسطى وتشكلها في العراق, وهي[74]:

العامل الاول: ان التشكل الطبقيالذي اطلقه الملك فيصل الاول ملك العراق, اهتم بطبقة محددة هي الطبقة العليا, وكان منطقياً ان يؤدي بصورة تلقائية الى النمو التدريجي لتكوينات طبقية اخرى. كالطبقة الوسطى او الطبقة الدنيا, وذلك على اساس محدودية راس المال الاجتماعي والاقتصادي.

العامل الثاني: يتمثل في انه منذ عصر الملك فيصل الاول, كان المجتمع في حالة استكمال لبنيته الطبقية, واذا كان الملك فيصل الاول قد اسس الطبقة العليا, فان الحركة التلقائية للمجتمع هي التي ادت دورا اساسياً في تشكيل بنية الطبقة الوسطى. وقد كان الصدام بين القوى المستعمرة والمشاعر الوطنية, هو الظرف التاريخي الذي طور وعي هذه الطبقة, التي ادت دوراً فعالاً في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية.

العامل الثالث: ويتمثل في انه من الصعب فهم تشكيلة الطبقة الوسطى من دون اعطاء اهمية لعلاقاتها بكل من الطبقات العليا والدنيا في المجتمع, وذلك لبعدين, الاول, ان هذه الطبقة لم تتبلور بعد, ومن ثم فان فهم الطبقات الاخرى سوف يساعد على فهم حركة هذه الطبقة وفاعليتها. اما البعد الثاني, فيتمثل في ان تشخيص حالة الطبقة الوسطى يكون الوجه الاخر لتشخيص اوضاع الطبقتين العليا والدنيا في المجتمع. وذلك لان, الطبقة الوسطى تستند في تشكلها الى عنصرين رئيسين, الاول, الهابطون من الطبقة العليا, اما بسبب التطور التاريخي والزمني لهذه الطبقة, او بسبب من افتقاد شروط التكيف مع متطلبات حياة هذه الطبقة. والثاني, الصاعدون من الطبقة الدنيا, الذين توفرت لهم ظروف مواتية للحراك الاجتماعي او الثقافي للانضمام الى بناء هذه الطبقة.

وبعد تشكل الطبقة الوسطى وفقا للعوامل اعلاه, سعت لتعزيز هذا الوجود,ولقد قادت عمليات التحديث في المجتمع العراقي من جراء المركزية في الحكم والتنوع الوظيفي واتساع التعليم وتطور المواصلات وتعميم الثقافة ووسائل الاعلام وتحسن نسبي في الخدمات الصحية المانعة للأوبئة الى زيادة اهمية الطبقة الوسطى, كما توسعت عددياً, لأنها تتغذى او تحصد ثمار العوامل التحديثية اعلاه التي كانت تدفع جزءاً من الطبقة الدنيا الى فوق, اي الطبقة التي تليهم مباشرة. اما الطبقة العليا فلم تتسع عددياً في هذه المرحلة, لان النمو الاقتصادي كان محدوداً فلم يخلق اثرياء جدد بسرعة او بأعداد كبيرة[75]. وكان طبيعياً بفعل هذه الزيادة في الاهمية والعدد ان تتطلع الطبقة الوسطى لدور سياسي في العراق, بيد ان قيام السلطات الملكية بأغلاق السبل كافة امامهالتحقيق هذه التطلعات بالمشاركة السياسية, بل وتعرض اعضاء الطبقة الوسطى للمطاردة والعنف والتنكيل, دفع بأفراد هذه الطبقة للبحث عن وسائل اخرى للتعبير عن شخصيتها وآرائها السياسية, فكانت احداث 14 تموز 1958, التي قامت بها الطبقة الوسطى, فقد كان الضباط جزءاً منظماً ومسلحاً من هذه الطبقة الواعية, يشاركونها الأَمها ومشاعرها وتطلعاتها, ويلمسون عن قرب الاوضاع التي كان يعيشها المجتمع العراقي, لذا تصدوا لمواجهة الامر, واستلام زمام المبادرة لتغير النظام الملكي واستلام السلطة باستخدام القوة واجراء الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية.[76] لقد تمتعت الفئات الوسطى والفقيرة بعد (الثورة) بسلطات واسعة من قمة الهرم الى قاعدته, ساعدها على ذلك

تقويض الملكية الخاصة التي اتبعتها الحكومات العراقية المتعاقبة منذ عام 1958, وسيطرة الدولة على عوائد النفط. ولم تعد الملكية في هذه اللحظة التاريخية اساس التراتب الطبقي, بل اصبحت السيطرة البيروقراطية هي المحدد الاكثر حسماً في هذا التراتب, وبدأ علاقات تحالف جديدة بين افراد الطبقة الوسطى, تضم التجار والمالكين والبيروقراطيين والعسكر. منصهرين جميعاً في بوتقة تنظيم سياسي واحد.[77]لقد اصبحت الطبقة الوسطى بعد سقوط الملكية هي المسيطرة على السلطة, وفي هذا يقرر (حنا بطاطو)(ان انظمة الحكم التي جاءت نتيجة (ثورة) 1958 والانقلابات العسكرية التي تلتها, هي نظم طبقة وسطى, ولكن ليس بالمعنى الضيق القائل بانها عملت صراحة باسم الطبقات الوسطى او انها خدمت, بوعي, مصالح هذه الطبقات الوسطى)[78] ولأثبات هذا, يورد حنا بطاطو عددا من النقاط منها[79]:

اولاً:ان عبد الكريم قاسم والاخوين عارف, وغالبية اعضاء اللجنة العليا للضباط الاحرار, واللجنة الاحتياطية للضباط الاحرار, ولجنة القادة العسكريين لعام 1958, ومختلف قيادات حزب البعث ومجالس قيادة الثورة لعام 1963, واعوام 1968-1977, ينتمون الى عوائل متوسطة او متدنية الدخل.

ثانياً:منذ (ثورة) تموز 1958 وحتى اليوم[80], نجد ان ابناء الفئات الوسطى لم يكتفوا باحتلال مواقع الدولة الممسكة في المبادرة والقرار, بل انهم بسطوا ما يشبه الاحتكار على المواقع العليا والوسطى في اجهزتها الادارية. ويمكن ادراك المعنى الحقيقي لهذه الوقائع حين نتذكر ان تقويض مرتكزات الملكية الخاصة الكبيرة والاستقلالية المالية الفعلية للدولة عن المجتمع بفعل دفق عائدات نفط ضخمة, ادى الى تراجع اهمية علاقة الافراد والفئات بالملكية, بينما ازدادت اهمية السيطرة على جهاز الحكومة, فاصبح الامساك بهذا الجهاز هو المحدد الاكثر حسماً للفعل الاجتماعي, قياساً الى ما مضى.

ثالثاً: ان الظروف التي ولدتها (ثورة) تموز 1958, والانقلابات اللاحقة, كانت الاكثر مؤامة لنمو الطبقة الوسطى. والحق ان مصالح الطبقة الوسطى تتغلغل في الدولة بدرجة اعظم من مصالح اي عضو اخر في المجتمع, وان المعطيات الاحصائية – مع الاقرار بعدم دقتها على النحو الذي نتمناه- تنبئ بتحول ملحوظ في المداخيل في المدن, منذ 1948, على حساب

الاعمال الكبرى, ولحساب الطبقة الوسطى المعتمدة على الراتب, وايضا, وان يكن بدرجة اقل, لحساب اصحاب الاجور.

وقد ساعد على بروز الطبقة الوسطى اكثر فاكثر, القفزة الكمية في نسبة المال المتوافر, اذ ارتفعت اسعار النفط اربعة اضعافها في عام 1973, واستمرت بالارتفاع خلال معظم العقد وارتفعت مرة اخرى في 1979, وزادت الاموال المنفقة على التنمية زيادة مذهلة. لقد اوجدت هذه التطورات بنية اجتماعية اقتصادية جديدة, ففي الوقت الذي اضمحلت فيه الطبقة العليا القديمة, فان الطبقة الوسطى, مهنية كانت ام تعليمية, توسعت توسعاً سريعاً. لقد شكلت الطبقة الوسطى حوالي ثلث اجمالي السكان وحوالي نصف السكان الحضريين, واظهر تحليل للبنية المهنية المتغيرة وجود زيادة كبيرة في الطبقة الوسطى, وبالإمكان القول ان المهنيين – الاطباء, والمحامين, والمهندسين, والمدرسين, وضباط الجيش, وموظفي الخدمة المدنية, والمستويات الوسطى في القطاعين التجاري والتعليمي- وهم يشكلون طبقة وسطى حقيقة, تضاعفت اعدادهم على نحو سريع[81].

توقفت هذه الانجازات التنموية ذات الاثر الإيجابي الواضح على الطبقة الوسطى فجأة باندلا ع الحرب العراقية –الايرانية في ايلول 1980, وبحلول منتصف الثمانينات, كان من الواضح ان الصراع قد انهى عهداً وبدا عهداً اخر. ان التدمير المادي للعديد من جوانب القطاع الصناعي في العراق وتدني الطاقة التصديرية لنفطه وجه ضربة عنيفة الى برامج التنمية والحراك الاجتماعي الذي كان سمة بارزة له. فالخسائر البشرية وانتقال كل اليد العاملة المتوافرة للمجهود الحربي ادى الى حدوث توترات في نسيج الدولة الاجتماعي والسياسي.[82]كان خلع الطبقة الوسطى ابرز مظاهره, لا سيما بعد غزو الكويت وحربها او ما اصطلح عليه بحرب الخليج الثانية 1990-1991, ويحدد (فالح عبد الجبار) النتائج الكارثية للحربين, بعد ان يستعرض الارقام الفلكية للخسائر الاقتصادية والاجتماعية والبشرية للعراق فيهما, بقوله (خرج العراق من حرب الخليج الاولى مأزوماً, ومعوزاً بعض الشيء, اما بعد حرب الخليج الثانية فقد خرج محطماً ومفقراً)[83] ليأتي الحصار الاقتصادي الذي اجهز على بقايا الطبقات الاجتماعية, وفكك بنى المجتمع القادرة والمهنية من شرائح الطبقة الوسطى, لتظهر طبقات جديدة نمت كتجار حروب او حزبين مغمورين تحولوا الى قادة ذوي نفوذ واسع في الدولة. لقد

ادى الحصار الاقتصادي الى تحطيم كامل للطبقة الوسطى التي انزلق معظم افرادها الى مستوى الفقر او دونه وفقدت بالتالي ادورها ووظائفها التي مارستها خلال المراحل السابقة(84).

ولم تقتصر الاثار المترتبة على السياسات الخاطئة هذه على البنية الاجتماعية والاقتصادية, وانما امتدت الى وقوع البلاد تحت سيطرة واحتلال الولايات المتحدة الامريكية في عام 2003. فقد شهد المجتمع العراقي بعد احتلاله تخبطاً امريكياً واضحاً في ادارته, فمن جهة عملت ادارة الاحتلال المدنية الى تسريح اعداد كبيرة من ابناء الطبقة الوسطى من منتسبي وزارات عديدة ذات مهام امنية ومخابراتية وعسكرية واعلامية, الامر الذي زاد من اعباء الطبقة الوسطى ومأزقها في العراق, فضلاً على تدهور الصناعات المحلية (القطاع العام والمختلط والخاص) وتعثر القطاع الزراعي في ظل ظروف امنية قاهرة , وهو ماخلق فجوة كبيرة لم تستطع اي كتلة من الممكن ان نطلق عليها الطبقة الوسطى او غيرها ان تملئها او تسد ثغراتها. ومن جهة اخرى, في مقابل ذلك, مع ان غالبية العراقيين يعتمدون على الراتب, فان الادارة المدنية الامريكية في العراق بعد الاحتلال حاولت منذ البداية انعاش الطبقة الوسطى, من خلال رفع الرواتب, وتحرير التجارة والاقتصاد, واعتماد برامج لتطوير الاقتصاد المحلي, وتشجيع المشاريع الصغيرة, وتوفير القروض الصغيرة لصغار الحرفين. وعلى الرغم من عشوائية هذه القرارات فأنهاساهمت بتحسين مستوى الدخل لفئات واسعة, وزيادة اعداد موظفي الدولة في محاولة لكسب تأييد فئات اوسع لصالح الوضع الجديد. ومن دون شك فقد ادت هذه السياسة الى اتساع صفوف الفئات الوسطى, غير انها لم تنجح حتى الان في حل اشكالية تبعية الطبقة الوسطى للدولة . وفي مقابل ذلك برزت نواة لطبقة من المستفيدين من الوضع الجديد, وهم نخبة من رجال الاعمال الذين تراكمت ثرواتهم خلال العقدين السابقين,وظهور موجة الاثرياء الجدد (طبقة برجوازية) التي تمتلك المال والنفوذ. واستمر بعض كبار موظفي الدولة في عمليات الفساد المالي والاداري كممارسة ناتجة عن غياب الردع المطلوب, مما ادى الى عدم وضوح السياسة الاقتصادية, وتباين الفوارق المادية بين شرائح المجتمع , وهو ما ادى في النهاية, الى اختلال المصالح الاجتماعية, فضلاً عن استمرار ضمور الطبقة الوسطى في العراق.(85)

وفي محاولة لمعرفة حجم الطبقة الوسطى في العراق حالياً, يقدر الخبير الاقتصادي العراقي (مظهر محمد صالح)[86], ان الطبقة الوسطى تشكل 60% من الشعب العراقي, موزعة بين الفئات الثلاث على النحو الاتية[87]:

الطبقة الوسطى العليا: وتمثل حوالي 15% من اجمالي الطبقة الوسطى, وهم رجال الاعمال وكبار موظفي الدولة والتكنوقراط واصحاب المهن الحرة من صناع السوق. اذ يزيد متوسط دخل الفرد فيها على (12) الف دولار سنوياً. كما ان مجموع الدخل الاسري السنوي لهذه الطبقة 50-60 الف دولار.

الطبقة الوسطى المتوسطة: وتمثل السواد الاعظم من موظفي الدولة وشرائح مشابهة, تعمل في نشاط السوق من مهندسين وفنيين واداريين وشريحة محدودة من المتقاعدين وغيرهم بنسبة 50% من اجمالي الطبقة الوسطى. وان متوسط الدخل السنوي للفرد فيها هو بنحو (7) الاف دولار, وان دخل الاسرة السنوي لهذه الطبقة هو ما بين 30-35 الف دولار.

الطبقة الوسطى الدنيا: فهي تمثل صغار الموظفين والشرائح العاملة في السوق المماثلة لها من الشغيلة وبعض فئات المتقاعدين والعاملين من ذوي المهارات المحدودة ويمثلون نحو 35% من الطبقة المتوسطة. ويبلغ متوسط دخل الفرد السنوي بنحو (5) الاف دولار, واجمالي الخل السنوي الاسري 20-30 الف دولار. وهي تعيش فوق خط الفقر, بمعنى انها تمتلك مرونة بنسبة75% في الحصل على المأكل والملبس والمأوى والتعليم والصحة.

2- الخصائص الفكرية للطبقة الوسطى في العراق, ان تقييم نشوء الطبقة الوسطى في العراق في مطلع العشرينات من القرن الماضي ومراحل التطور اللاحقة وحتى تدهورها في اواخر ذلك القرن ومن ثم محاولات اعادة تشكيلها في مطلع القرن الحادي والعشرين, تقتضي معرفة الخصائص التي ارتبطت بها, وميزتها عبر هذه المسيرة الطويلة. ومن اهمها:

أ_ تختلف نشأة الطبقة الوسطى في العراق عن تلك التي عرفتها اوربا, فالطبقة الوسطى في المجتمعات الاوربية كانت قد نشأت في رحم الانتاج الاقطاعي كطبقة جديدة تحمل علاقات انتاج رأسمالية متناقضة تماماً لعلاقات الإنتاج السائدة, ولم يكن ذلك موجوداً في العراق, فعند تأسيسه لم يكن العراق قد تملك طبقة أرستقراطية في المعنى الذي كان سائداً في اوربا, حيث كان الملك الحاكم في العراق لم يملك سوى راتبه ومخصصاته التي كان يستلمها من الدولة, ولم

يكن اقطاعياً, ولم يملك اراضي زراعية واسعة, ولم تكن حاشيته والذين ساعدوه في الحكم من الاقطاعيين, بينماكان ملوك اوربا على راس الاقطاعيين, وكانت اقطاعيات الملوك اوسع الاقطاعيات قاطبتاً, وتخضع لهم حاشيتهم من نبلاء الاقطاع, هذا فضلاً عن ان نظام ملكية الاراضي في العراق لم يكن مرتبطاً برجال الدين ابداً, فلا توجد سلطات ثيوقراطية تخول رجال الدين التدخل في النظام الاقتصادي والسياسي للدولة, كما كان يفعل باباوات وكاردينالات ونبلاء الاقطاع.وحتى المؤسسة العسكرية في الدولة التي كانت تحت قيادة الملك, فقد كانت تستلم راتبها من وزارة الدفاع, وكانت شؤونهم مرتبطة بتلك الوزارة, بينما في المجتمع الأرستقراطي الاقطاعي الاوربي كان الفرسان ومؤسستا العسكر والكنيسة وبارونات الاقطاع ملتحمة عضوياً تحت سلطة الملوك(88).

ب- ان الطبقة الوسطى هي طبقة ثورية, انها صانعة الاحداث الكبرى في تاريخالعراق السياسي الحديث, وكمثال على ذلك, يقرر (حنَا بطاطو), ان الفئة العليا من الطبقة الوسطى هي التي قامت (بثورة) 1958/7/14 , وان كل البنيان السياسي والاجتماعي للدولة العراقية بعدها كان حقبة الطبقة الوسطى(89).

ج_ ان الدولة العراقية هي التي انشئت الطبقة الوسطى وهي التي دعمتها وهي التي اضعفتها ايضاً. وان مأزق الطبقة الوسطى العراقية الحقيقي يكمن في انها صنيعة الدولة, وهو ما جعلها تابعة للدولة دوماً, فهي لم تكن في يوم من الايام وليدة الصراع في الدولة او مع الطبقة العليا(90).

د_ ان الطبقة الوسطى العراقية لم تكن كتله صوانية ابداً, فالفئات الوسطى غير متجانسة لا من ناحية التعليم ولا المهنة ولا الدخل ولا درجة التمدن, ناهيك عن التوجه الايديولوجي والانحيازيات السياسية الضيقة. انها طبقة مكونة مثلاً من فئات تعتمد التعليم الحديث(اي حديثة) واخرى تعتمد الحرف(اي تقليدية), وتندرج هذه الفئات الى مراتب عليا ووسطى ودنيا, وتنشطر مكوناتها على اسس اثنية ودينية وطائفية تتقاطع معالتمايزات الاجتماعية, لهذا اصبحت مرتعاً للتشظي والانشطار والاحتراب(91).

هـ_ ان الطبقة الوسطى العراقية, او ان الشطر الاعظم منها, يعتمد على الراتب ويعمل في اجهزة الدولة. ومن المعروف ان الفئات المعتمدة على الرواتب الحكومية اكثر تضرراً بما لا

يقاس عن الفئات المعتمدة على الملكية, رغم وجود تجاور بين الاثنين في الوجود, في فترات الازمة الاقتصادية وبخاصة النمو المرعب للتضخم الفائق. ومن المعروف اقتصادياً ان اعتماد الطبقة الوسطى على الراتب, يجعلها تقف على تلة رمال متحركة, في البلدان ضعيفة التصنيع او المعتمدة على انتاجية النفط, اي ارتفاع الانتاجية الريعية لا الانتاجية الفعلية. وكمثال على ذلك, ما جرى في العراق بعد حرب الخليج (1991), ان بالوسع التصور ان الشرائح الدنيا ذات الرواتب في هذه الطبقة قد تدهورت تدهوراً كبيراً بعد هذه الحرب, وان كتلاً منها قد تحولت الى فئات رثة[92].

و- ان الطبقة الوسطى في العراق تمتاز بالهشاشة والضعف, رغم كبر حجمها امام جبروت الدولة, وذلك بفعل عاملين رئيسين, يشير الاول منها الى ان الطبيعة المهزوزة, المتقلبة للاقتصاد الريعي_الدولتي, لا تسمح باطراد نمو هذه الطبقات, بل يؤدي, عند نقاط معينة, الى انهيار مراتب واسعة منها, وانحدار الفئات المعتمدة على الراتب منها انحداراً شديداً الى مرتبة بروليتارية متعلمة, تحمل تطلعات الطبقات الوسطى الحديثة(بفعل التعليم) وتعجز عن تلبية هذه التطلعات في سوق العمل المتخم[93]. اما الثاني فيشير الى ان الطبيعة الامنية الطاغية للدول العراقية منذ التأسيس والى الان استوعبت القسم الاكبر منها, فأصبحت هذه الطبقة الاشد تعلقاً من سواها بالدولة الامنية وهي المحرومة من الملكية الكبيرة اصلا(رأسمالاً او عقاراً) كمصدر مستقل للدخل[94].

3- ضرورات احياء الطبقة الوسطى في العراق, ان الازمات والمشاكل التي عصفت, وتعصف بالعراق, نظاماً ومجتمعاً, تجعل من احياء الطبقة الوسطى وتهيئة المجال امامها لممارسة ادواراً اكبر ضرورة ملحة للأسباب الاتية:

أ_ ان التراتبية الاجتماعية للطبقة الوسطى بالنسبة الى المهن والقطاعات التي تمثلها تجعلها اكثر انفتاحاً في اداء الادوار بمختلف صنوفها, من دون حساسية فئوية واثنية وايديولوجية, بل هي الطبقة الأكثر حمايةً وتحصيناً حيال العصبية العشائرية في العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي, وهذه الحماية وهذا التحصين سيمنحانها قوة وتفوق ولاسيما في الوسط السياسي, الذي يتطلب قيادةً ودوراً واضحي الاقتدار وتحمل المسئولية[95].

ب_اكثر القوة السياسية العراقية تدخل السياسة بدفع من عوامل سياسية وعرقية وايديولوجية, وفي كل هذا الدفع تراهن على عاملها هذا(اي على عاملٍ واحد) بينما الطبقة الوسطى تدخل من عوامل جمعية اكثر انتشاراً وتغلغلاً, تتوزع على ارتكازات سياسية (تكنوقراطية) واقتصادية (مؤسسات ومصالح وورش عمل ومراكز علمية وتكنلوجية وحثية وحرف فردية واختصاصية) وكذلك على ارتكازات اجتماعية (منظمات وجمعيات ونوادي مختلفة الاغراض الاجتماعية) وهذا الانتشار والتغلغل الشامل يجعلها اكثر جاذبية لدى الطبقات الاخرى, والتي تجد من مصلحتها ومصالحها منحها الثقة المطلوبة كي تدير العملية السياسية والاقتصادية بطمأنينة وامان,واعتباراً من شيوع المحرك المهني والاجتماعي ووسيطته بين الطبقات, وبعيداً عن العوامل الطبقية والفئوية والعرقية ولأيديولوجية التي تغلب عليها الحسابات والمصالح الطبقية, والتي تجعلها اسيرة لتلك العوامل والحسابات في التعامل السياسي والاقتصادي[96].

ج_ ان الطبقة الوسطى بحكم حصولها على تعليم جيد ومعيشة كافية تكون اقرب وايسر الى الايمان بالقيم الديمقراطية, لان التعليم يوسع مدارك الانسان, ويُعينه على فهم الحاجة الى قواعدالتسامح وابتعاده عن التطرف, وتلك ممارسات ديمقراطية. وان المستوى المعاشي الكافي يدفع الفرد الى الاهتمام بالتعليم والثقافة التي تُزيد من قدرته على تعددية الاختيارات. بمعنى تمتعه بالحرية الفردية والاستقلالية, وهي من المرتكزات الفكرية للديمقراطية[97]. يرى (بارنغتون) مور جونيور في كتابه: الاصول الاجتماعية للديمقراطية والدكتاتورية (ان البنية الاجتماعية التي تنتج طبقة وسطى واسعة هي الاكثر استعداد للانتقال الى الديمقراطية, الطبقة الوسطى= الديمقراطية)[98]

د_ان الطبقة الوسطى هي مصدر للأفكاروالآراء الجديدة, وهي تتدرب على المهارة السياسية وتزيد من المشاركة السياسية, هذا من جهة, ومن جهة اخرى, فان الطبقة الدنيا اذ ما تهيأت لهاظروفالتعليم الجيد والمستوى المعاشي المزدهر, تصبح قادرة على البدء بحراك اجتماعي الى اعلى والوصول تدريجياً الى طبقة وسطى. لذلك فان الطبقة الوسطى تسعى الى المشاركة في السلطة, وهي المصدر التاريخي للديمقراطية الحديثة[99]. ان قراءة موضوعية لواقع حال الطبقة الوسطى في العراق اليوم, تكشف بوضوح انها تعاني من معضلات حقيقية, تجعلها ابعد ما يكون على ان تكون الطبقة الرئيسة في المجتمع العراقي على الرغم من حجمها الكبير, ويبدو

ان الظروف الامنية الصعبة التي يمر بها العراق حالياً, واعتماد فئاتها الثلاث الكلي على الدولة من خلال الراتب, فضلاً على الاختلالات البنيوية والتشوهات الحقيقية التي يعاني منها الاقتصاد العراقي, تحول جميعها من ولادة فعلية لطبقة وسطى مؤثرة في الوسط السياسي والفكري العراقي.

الخاتمة

تستمد الطبقة الوسطى وجودها المعاصر من مجموعة قيم وافكار عديدة, مارست في الماضي, وتمارس اليوم, دور توجيه وادارة وحتى تحكم في مجمل النشاط السياسي والاقتصادي والفكري الذي يمارسه المجتمع الانساني. ان افكار مثل الديمقراطية والحرية والفردية والعقلانية وغيرها, تبدو اليوم الاكثر استخداماً وتداولاً, وهي تمثل بمجموعها منظومة القيم والافكار التي مهدت لولادة الطبقة الوسطى وازدهرت بفعل صعودها وارتفاع شأنها في اوربا والعالم الصناعي برمته.وعلى الرغم من حديث البعض عن دخول الطبقة الوسطى في مرحلة ذبول واضمحلال, استناداً للازمات التي يعاني منها الاقتصاد العالمي , والتي ادت الى تراجع في نظام الحقوق والامتيازات التي تنعم بها افراد فئاتها الثلاث لفترة طويلة, خلال القرن العشرين تحديداً, الا ان ذلك, في تقديرنا, لا يبدو كافياً للحديث عن زوال بل وحتى تراجع في مكانة ودور الطبقة الوسطى على مستوى العالم بأكمله. قد تكون فعلاً مكانتها الاقتصادية تراجعت بفعل الازمات الاقتصادية العالمية, ولكن مكانتها السياسية والفكرية لا زالت مؤثرة , بل مهيمنة على الانساق الفكرية والابعاد السياسية العالمية. وربما العالم اليوم, ولا سيما في منطقتنا العربية, اكثر احتياجاً من اي وقت مضى الى افكار الوسطية والاعتدال التي تتماهى في وجودها مع وجود الطبقة الوسطى, مع تصاعد موجة التطرف والكراهية وما انتجته من عنف يضرب العالم من اقصاه الى اقصاه, وسيبدو اي جهد في المنطقة العربية والشرق الاوسط عموماً يتجه الى احياء الطبقة الوسطى وتعزيز وجودها ودورها مرحب به لإعادة الاعتبار الى دولها التي فقدت بفقدانها للطبقة الوسطى دورها الايجابي على الساحة العالمية.

1. السيد الحسني , علم الاجتماع السياسي: المفاهيم والقضايا, الدوحة, دار قطري بن الفجأة, 1980, ص80.
2. خليل احمد خليل (اعداد), معجم المصطلحات الاجتماعية, ط1, بيروت, دار الكتاب اللبناني, 1995, ص270.
3. نقلاًعن: اندرو جرانت, الاشتراكية والطبقات المتوسطة, ترجمة فريد مصطفى, القاهرة, الدار القومية للطباعة, 1963,ص 11

4. المصدر السابق نفسه, ص 11.
5. حنَا بطاطو, العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية, ترجمة عفيف الرزّاز, الكتاب الاول, ط1, طهران, منشورات فرصاد, 2005,ص 23.
6. علي حسني الخربوطلي, المجتمع العربي, الجيزة, مؤسسة المطبوعات الحديثة, 1959,ص ص 118-119.
7. الهابيتوس, هو انساق من الاستعدادات المستدامة والقابلة للنقل. انها مُبنينة, قابلة, مسبقاً, للاشتغال بوصفها بنى مُبينة, أي باعتبارها مبادئ مولدة ومنظمة لممارسات وتمثلات يمكن لها, موضوعياً, ان تتأقلم مع هدفها, من دون افتراض رؤية واعية للغايات والتحكم الصريح في العمليات الضرورية من اجل بلوغها. للمزيد ينظر: دنيس كوش, مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية, ترجمة منير السعيداني, ط1, بيروت, المنظمة العربية للترجمة, 2007, ص142.
8. حمد موسى بدوي, تحولات الطبقة الوسطى في الوطن العربي, ط1, بيروت, مركز دراسات الوحدة العربية, 2013, ص 78
9. المصدر السابق نفسه, ص9.
10. دنيس كوش, مصدر سبق ذكره, صص134-135
11. المصدر السابق نفسه, ص 143.
12. علي حسني الخربوطلي, مصدر سبق ذكره, ص ص 122-123.
13. احمد زكي بدوي, معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية, بيروت, بيروت, مكتبة لبنان, 1997, ص 411.
14. علي حسني الخربوطلي, مصدر سبق ذكره, ص 123.
15. المصدر السابق نفسه, ص119.
16. نقلاً عن: جان بيير كوت وجان بيير منوييه, عناصر من اجل علم اجتماع سياسي, ترجمة انطون حمصي, القسم الاول, دمشق, وزارة الثقافة, 1994, ص ص 146-147
17. اندرو جرانت, مصدر سبق ذكره, ص13.
18. جان بيير كوت و جان بيير منوييه, مصدر سبق ذكره, ص144.
19. جعفر نجم نصر, المعرفة الدينية عند عبد الكريم سروش, مجلة دراسات اجتماعية, بغداد, بيت الحكمة, العدد24, 2010, ص 136
20. لينين, الثقافة والثورة الثقافية, ط1, موسكو, دار التقدم, 1967,ص 91.
21. قباري محمد اسماعيل, قضايا علم الاجتماع الماركسي, الاسكندرية, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1977, ص 40.
22. فريدة جاسم المندلاوي, النظرية الصراعية في مجتمع متغير, مجلة دراسات اجتماعية, بغداد, بيت الحكمة, العدد23, 2010 , ص78.
23. ماركس وانجلز, بيان الحزب الشيوعي, موسكو, دار التقدم, د.ت, ص ص 40-41 .
24. لينين, الدولة, موسكو, دار التقدم, 1967, ص11.
25. ماركس و انجلز, بيان الحزب الشيوعي, مصدر سبق ذكره, ص41.
26. المصدر السابق نفسه, ص41.
27. المصدر السابق نفسه, ص 53.
28. المصدر السابق نفسه, ص 65.
29. المصدر السابق نفسه, ص68.
30. عبد السلام حيمر, في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين, ط1, بيروت, الشبكة العربية للأبحاث والنشر, 2009, ص 135.
31. هاني شكر الله, الطبقة وممثلوها السياسيون, ضمن كتاب: جيوفري نويل سميث وكينتين هور واخرون, غرامشي وقضايا المجتمع المدني, ط1 , القاهرة, مركز البحوث العربية, 1991, ص 225
32. -عبد الفتاح ابراهيم, الاجتماع والماركسية, بيروت, بيروت, دار الطليعة, 1980, ص 80.

33. اكرم عدنني, سوسيولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر, ط1, بيروت, منتدى التعارف, 2013 , ص 70 .
34. احمد موسى بدوي, مصدر سبق ذكره, ص 64 .
35. فالح عبد الجبار, الطبقة, التاريخ, المجتمع. نظرة في مصادر منهج بطاطو, ضمن كتاب: اسحاق نقاش واخرون, المجتمع العراقي, حفريات سوسيولوجية في الاثنيات والطوائف والطبقات, ط1, بغداد– بيروت, معهد الدراسات العربية,2006, ص141
36. اكرم عدنني, مصدر سبق ذكره, ص ص 70–71.
37. مشحن زيد محمد التميمي, النخبة السياسية ورأسمالية الدولة العراقية للفترة 1968– 2003, مجلة آداب المستنصرية, بغداد, الجامعة المستنصرية–كلية الآداب,العدد60, 2013,ص 523.
38. بوزيدي رجاء, النخبة النسوية المهنية بين الواقع السوسيوثقافي ومتطلبات التنمية, اطروحة دكتوراه غير منشورة, جامعة ابي بكر بالقايد–تلمسان– ,كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية,2015, ص 35.
39. عبد الرضا الطعان واخرون, مدخل الى الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر, الجزء الثاني, بغداد, جامعة بغداد–كلية– العلوم السياسية, د.ت, ص 89
40. بوزيدي رجاء, مصدر سبق ذكره, ص ص32–33.
41. مشحن زيد محمد التميمي, مصدر سبق ذكره, ص ص 526–528.
42. رمزي زكي, الليبرالية الجديدة تقول: وداعاً.. للطبقة الوسطى, مجلة عالم الفكر, الكويت, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, المجلد 25 العدد2, 1996, ص37.
43. حنا عبود, نظرة مغايرة في الطبقة الوسطى وتراثها, مجلة حوار العرب, بيروت, مؤسسة الفكر العربي, العدد12, 2005, ص 9
44. ستار نوري العبودي, المجتمع العراقي في سنوات الانتداب البريطاني, ط1, بغداد, مؤسسة دار الكتاب الاسلامي, 2006, ص145.
45. اسامة الغزالي حرب, الاحزاب السياسية في العالم الثالث, الكويت, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, 1987,ص 53.
46. فايز سارة, الطبقة الوسطى وتحدياتها في سوريا, مجلة حوار الفكر, بيروت, مؤسسة الفكر العربي العدد 10, 2005, ص46,
47. الامم المتحدة اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب اسيا(ايسكوا), الطبقة الوسطى في البلدان العربية, بيروت, 2014, ص24.
48. رمزي زكي, مصدر سبق ذكره, ص ص 37–38.[48]
49. توفيق المديني, الطبقة الوسطى العربية. من الريادة الى الانهيار, مجلة حوار العرب, العدد 10, مصدر سبق ذكره, ص ص35–36.
50. شمران حمادي, اصل التفاوت في الاتجاهات بين الناس, مجلة العلوم السياسية , جامعة بغداد كلية العلوم السياسية , العدد 47 , 2008, 24–26..
51. نقلاً عن:–معن خليل عمر, نقد الفكر الاجتماعي المعاصر, ط1, بيروت, دار الافاق الجديدة,1982,ص 72.
52. فالح عبد الجبار. الطبقة, التاريخ, المجتمع, مصدر سبق ذكره, ص 138.
53. ماركس وانجلز, بيان الحزب الشيوعي, مصدر سبق ذكره, ص 50.
54. جان بيير كوت وجان بيير منوييه, مصدر سبق ذكره, ص 153.
55. قصي الحسين, دور الديمقراطية في بناء الطبقة الوسطى, مجلة حوار العرب, العدد 10, مصدر سبق ذكره, ص 61.
56. مظهر محمد صالح, ماهي الطبقة الوسطى, مجلة حوار. بغداد, المركز العراقي للتنمية والحوار الدولي, العدد , 2014.
57. ابو اليزيد علي المتيت, تطور الفكر السياسي, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر, 1970, ص ص 16–17.

58. ارسطو طاليس, السياسة, ترجمة احمد لطفي السيد, الرياض–بيروت, منشورات الفاخرية بالاشتراك مع دار الكتاب العربي, د.ت, ص ص52–53
59. ول ديو رانت, قصة الحضارة, حياة اليونان, الجزء 7, مجلد 2, ترجمة محمد بدران, بيروت, دار الجيل, 1988, ص 512.
60. عطا بكري, الديمقراطية في التكوين, بيروت, بيروت, دار العلم للملاين, 1952, ص 52.
61. مفيد الزيدي, موسوعة تاريخ اوربا الحديث والمعاصر, ج 1, عمان , دار اسامة للنشر والتوزيع, ,2004, ص 400.
62. ياسر قنصوه, الليبرالية– اشكالية مفهوم, القاهرة, رؤية للطباعة والنشر, 2008, ص ص 85–86.
63. قباري محمد اسماعيل, مصدر سبق ذكره, ص53.
64. معن خليل العمر, معجم علم الاجتماع المعاصر, نابلس, دار الشروق للنشر والتوزيع, 2000,ص 345.,
65. حنا عبود, مصدر سبق ذكره, ص12.
66. الامم المتحدة, مصدر سبق ذكره, ص 23.
67. رمزي زكي, مصدر سبق ذكره, ص 39.
68. مظهر محمد صالح, مصدر سبق ذكره, ص68.
69. عبد الزهرة الركابي, الطبقة الوسطى في العراق. هل تولد من جديد, مجلة حوار العرب, العدد 10، مصدر سبق ذكره, ص 5.
70. كومبرادور لفظة اسبانية الاصل, وتعني المشتري. والكومبرادور, احدى مراتب البرجوازية التي اقتصر تكوينها على البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة, او المتخلفة بوجه عام. وقد بدأ استخدام لفظة الكومبرادور كمصطلح اجتماعي خاص منذ اواخر التاسع عشر, واطلق على فرد او مجموعة افراد ممن قاموا بدور الوكيل لشركة او مؤسسة اجنبية. ينظر, ستار نوري العبودي, مصدر سبق ذكره, ص141.
71. عامر حسن فياض, جذور الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق, ط1, بيروت, دار ابن رشد للطباعة والنشر, 1980, ص15.[71]
72. المصدر السابق, ص15.
73. ستار نوري العبودي, مصدر سبق ذكره, ص141.
74. نبيل عمران موسى الخالدي, الطبقة الوسطى في العراق تحليل سوسيولوجي, ط1, العراق– الديوانية, دار نيبور, 2015, ص ص134–135.
75. رهبة اسودي حسين, المثقف والسلطة في العراق 1921–1958, ط1, بغداد, وزارة الثقافة– دار الشؤون الثقافية العامة,2013, ص 289.
76. حسن عودة ابو الهيل, اسس قيام الطبقة الوسطى في العراق, اطروحة دكتوراه غير منشورة, جامعة بغداد, كلية العلوم السياسية, 2014, ص 216.
77. احمد موسى بدوي, مصدر سبق ذكره, ص 106.
78. حنا بطاطو, التحليل الطبقي والمجتمع العراقي, في اسحاق نقاش واخرون, مصدر سبق ذكره, ص ص 25–26.
79. المصدر السابق, ص26.
80. نشر هذا البحث عام 1977 في كتاب صدر بالإنكليزية بعنوان المجتمع العربي عن الجامعة الامريكية في القاهرة.
81. فيبي مار, تاريخ العراق المعاصر, الجزء الثاني, ترجمة مصطفى نعمان احمد, القاهرة, مؤسسة مرتضى منصور للكتاب العراقي, 2009, ص ص 48–123.
82. المصدر السابق, ص78.
83. فالح عبد الجبار, الدولة, والمجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق, مصدر سبق ذكره, ص 168.
84. حسن عودة ابو الهيل, مصدر سبق ذكره, ص248.
85. 85– نبيل عمران موسى الخالدي, مصدر سبق ذكره, ص ص 172–173.

86. مستشار رئيس الوزراء العراقي الحالي الدكتور حيدر العبادي, ونائب مدير البنك المركزي العراقي سابقاً.
87. مظهر محمد صالح, مصدر سبق ذكره, ص ص 13–14.
88. نبيل عمران موسى الخالدي, مصدر سبق ذكره, ص ص 108–115
89. حنا بطاطو, التحليل الطبقي والمجتمع العراقي, مصدر سبق ذكره, ص 32.
90. نبيل عمران موسى الخالدي, مصدر سبق ذكره, ص 158.
91. فالح عبد الجبار, الدولة, المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق, القاهرة, مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية–دار الامين للنشر والتوزيع, 1995, ص125
92. المصدر السابق نفسه, ص 126.
93. فالح عبد الجبار, الطبقة, التاريخ, المجتمع نظرة في مصادر منهج بطاطو, مصدر سبق ذكره, ص 146.
94. عامر حسن فياض, العراق وشقاء الديمقراطية المنشودة, ط1, عمان, دار اسامة للنشر والتوزيع, 2009, ص 130.
95. عبد الزهرة زكي, مصدر سبق ذكره, ص54.
96. المصدر السابق نفسه, ص 54.
97. عبد العظيم جبر حافظ, التحول الديمقراطي في العراق الواقع. والمستقبل, العراق, مؤسسة مرتضى منصور للكتاب العراقي, 2009, ص 179.
98. نقلاً عن: المصدر السابق نفسه, ص 12.هـ
99. المصدر نفسه, ص 179.